خيبة

وزادت الخيبات برحيلهم

مؤمنة منصور

الإهداء

إلى من عاد في آخر أيام حياته طفل صغير
يتشبّث بنا خوفاً على نفسه من الضياع.
إلى من كان يخاف الوحدة وينادينا كي نجاوره ولا نتركه.
كيف تركناك في قبرك وحيداً دون أن نلتفّ حولك؟
إلى من عانى في سنوات عمره قاطبة دون أن يسأله أحد عن أحواله وحين توفّاه الله أتوه يترحمون عليه.
إلى أبي، طفلي الوحيد
أهديك هذا الكتاب

شكراً

الشكر لكلّ من رآنا في زحام يومنا ولم يقترب منا وتركنا نكمل حياتنا دون أن يمرّ كعلقمٍ بحياتنا.

الشكر لكلّ من مرّ في حياتنا ولم يذقنا المرّ وكان كالبلسم الشافي.

الشكرّ لكلّ من توقف قليلاً ومسح الدمع في المآقي ولم يكن لنا جرحاً لا يُشفى.

الشكر لكلّ من كانت نهاياتنا معه كالبدايات.

لسقوط المطر حنين غريب، حنين يأتي بعد منتصف الليل يسرق النوم من أجفاني، يأخذني دقائق إلى سنوات الأمس، حيثُ كنت أصغر، أطهر، وأصفى، هناك كانت طفولتي وبراءتي.
أحاول النوم من جديد، لكنه هجرني وجافاني، أتقلب يميناً ويساراً لعلّي أمنع عقلي من التفكير، إذ بات يرهقني والحنين وحش كاسر لا يرحم.

حين يجتاحنا شيء جميل نبرره لإنجازاتنا ونحتفل فيه كنصر لنا، وحين يجتاحنا شيء سيء نبرره للقدر. لماذا ؟؟ أليس الله من خلق الخير والشر وخلق الفراق؟ ليرى من يفوز بالصبر أكثر فأجره عظيم وثوابه أعظم.

وها قد مضى اليوم الأول بعد غيابك دون سماع صوتك، أستطيع الآن أن أصارحك بكل شيء، لقد كان ذلك مؤلما حقاً. لم اعتد عليه، كان

هناك شيء ناقص في حياتي إنه صوتك أنت. لقد كان صعباً جداً، قاسياً جداً، ومؤلماً جداً.

أبكم هو هاتفي الآن، منذ رحيلك لم يعد كما كان، أتفقده في اليوم آلاف المرات ومن ثم أتذكر أنك رحلت، وأتذكر بأنك لن ترسل أي رسالة ولن تتصل، هكذا اخبرني هاتفه.

وحدتي قاتلة دون سماع همساتك، يومي ممل دون سماع ضحكاتك، إلى متى سأبقى أحاول قتلك ونفيك من ذاكرتي؟ أكرهك آدم، ولا أدري ما أفعل حيال كرهي لك، الوحدة قاتلة لكنها أفضل من نفاقك.

كذب من قال أنت كروما كل الطرق تؤدي إليك، أنت كأوروبا يجب أن أموت لأصل إليك، لا يا عزيزي!!! سأجعلك كالقدس الوصول إليك شبه مستحيل.

ينقسم يومي لثلاث مراحل، ففي الصباح اشتاقك وبشدة، تذرف دموعي وحدها، الحنين قاتل يا سيدي، وفي الظهر أتذكر ما فعلته بقلبي فأكرهك وأحاول نزعك من ذاكرتي، أكره نفسي حين أتذكرك، وفي جنح الليل أجدني سعيدة كونك لست جزءا من حياتي فالحياة لا تتوقف عند رجل، ولكن عند وضع رأسي على وسادتي يجتاحني الحنين مجددا فتغرق الوسادة بالعبرات، فألف لعنة عليك عما فعلته بقلبي.

إلى متى سيبقى طيفك يزور ذاكرتي في كل حين؟ بتُّ لا أخرج إلى أي مكان لأن في كل شارع ذكرى لنا فيه، في كل مكان أجد صورتك فيه، إلى متى وأنا أحاول قتلك من قلبي؟ إلى متى ستبقى جليس أفكاري؟

زرعتُ حديقة كبيرة وزرعتُ فيها أروع الأزهار والورود ورويتها بالماء إلى أن كبرت وحميتها من الوحوش بسور ضخم، منعت الجميع من دخولها، وكنت أراقبها وهي تنمو وتتفتح الأزهار فتداعبها نسمات الهواء، فتتراقص يميناً ويساراً وهي شامخة رأسها نحو الشمس، إلى أن جئت أنت أوهمتني بحبك لحديقتي وانك تحب لثم الأزهار والاستمتاع بعبيرها، أدخلتك إياها فرحتَ كثيرا وبتَ لا تغادر حديقتي إلى أن هبت رياحك العاتية فاقتلعت الأزهار وصارت تطير في الهواء، ورحلت إلى البعيد.

صرخت باكية، راجية، متألمة عما فعلت، زرعتها منذ سنين وبنيت حولها ذاك السور، منعت عنها الوحوش كافة، لكن لم أكن أدري أنك الوحش الذي أدخلته من الباب على هيئة عصفور جميل، تحولت لطائر جارح.

الآن يا سيدي عدت ترميم حديقتي، أزهاري الآن أكثر وسوري الآن أضخم، فحذار ثم حذار أن تحاول الاقتراب من حديقتي.

تفتح الواتس لتراقب آخر ظهور له فتجده متصل فتفرح وتنتظر أن يبدأ (جاري الكتابة) ولكن سرعان ما تجده أغلق الواتس، فتحزن، وتفتح الفايبر تجده متصل تنتظر منه أن يكتب ولو كلمة ولكن يبقى متصلاً دون محادثتها وتزداد خيبتها، وبعد ساعة تفتح الماسنجر تجده متصلاً تفرح بذلك ولكن من يحادث؟ لماذا لم يكتب؟ تذهب إلى سريرها وتحتضن هاتفها تراه قبل النوم،

وفي حلمها تراه وعند استيقاظها هو أول من تراه، وحينما تفتح عينيها تعاود سريعا الانتقال بين الواتس والفيس والفايبر وكل يوم تزداد خيبتها ولكن عندها أمل أن يحادثها ويخبرها أن غيابها مؤلما.

هو يجلس بين أحضان أخرى وهاتفه بيده، يبعث لها رسالة فيجدها متصلة، يجن جنونه، مع من تتحدث !! وحين تحادثه يوبخها وبشدة، يريد أن يعرف مع من تتحدث لدقائق وجدها متصلة، هي تغلق هاتفها وتسقط من عينيها دمعة يتيمة وتتساءل ؟؟ أتراه يحبني إلى درجة الغيرة الشديدة علي؟؟ بالله عليكم كيف نقابل أنانية آدم؟ هل هو حب السيطرة؟ أم حب التملك؟

أنت لست إلا بطل من أبطال روايتي، تشبه عزيز في رواية أحببتك أكثر مما ينبغي فهو خائن مثلك، تستهويه أي أنثى، أنا قرأتك للنهاية، طالعتك حرفاً حرفاً، غرقت في بحرك حد الثمالة، لكنك مسكين أنت لم تطالعني ولم تقرأ شيئا مني بعد، الآن انتهت روايتي، وكعادتي حين أنهيها أتناساها لأبدأ رواية جديدة لن تكون حاضراً فيها، متعطشة أكثر من أي وقت للنسيان فإن اضطر الأمر سأحرق الرواية قبل أن تحرقني.

لكم تمنيت أن نتشارك أروع لحظات سعادتي، أن اتصل بك وأخبرك بسعادتي كم كانت كبيرة، ولكن غيابك أفسد علي متعة السعادة الكاملة، تمنيت أن أقص عليك تفاصيل رحلتي بأكملها، أن آتي إلى البيت وأراك تنتظرني وتسعد لرؤيتي سعيدة، ولكنك من الوصل حرمتني.

عاد الربيع دون أن يحضرك معه، عاد آذار وهو يحمل الأمل في طياته، ولكن لم يكن هناك أمل، أتراني !! سأذهب إلى تلك الأماكن الخضراء وحدي، أتأمل فيها كل ذكرى جميلة جمعتنا، هناك على سفح الجبل رسمنا أروع الأحلام، وعند شاطئ البحر لعبنا وضحكنا وابتسمنا لأيام

كنت أحسبها ستبقى إلى الأبد، أتراني سأنسى كل هذا وربيع آذار أشعل في فؤادي الذكرى؟

لماذا أنا من تبدأ كل شيء؟ من تبدأ الاعتذار في كل مرة تكون المخطئ فيها فأكون السباقة في كلام الغزل انتظر مغازلتك، لكن عبثاً أحاول، في كل نقاش نبدأه أكون من اخترته ولكن سرعان ما تنهيه، أكون بحاجة إلى محادثتك بأي شيء، ما يهمني سماع حديثك، لكن سرعان ما تنهيه بصمتك المعتاد، فلا تستغرب إذاً! إذا كنتَ من اختار درب البداية، لكن النهاية سأختارها أنا.

حلمتْ به في ليلتها تلك، كان شاباً اسمر وسيماً لنظراته دفئ حميمي، جلس جوارها فألهب فؤادها بدفء يديه، رحل بعيداً وعاد إليها بعد عشر سنوات، هي لا تدري هل نامت عشر سنوات وهي تنتظره؟ أم أن ليلتها استغرقت عشر سنوات؟ أمسك يديها ووعدها ألا يغيب، لكن شاء القدر أن يغيب حين فتحت عينيها على واقع لا تريده، حاولت أن تنام لعله يأتي، ولكنه أبى، ما أجمل أن يصبح حلمك واقعاً! من هو هذا الشاب؟ هل هو

طيف؟ أم ملاكها الحارس؟ أم إشارة من القدر بأن هذا الشاب هو من تبحث عنه؟ أو من أدراها ربما هو من يبحث عنها.

وحيدة كوردة حمراء متلألئة، قطفوا إخوتها حين كانت برعما صغيراً، ولا ذنب لهن سوى أنهن أزهرن قبلها، أشرقت الشمس فحمرت خجلاً، وحين أنار القمر طأطأت رأسها خجلة، داعبها النسيم فتراقصت يمنة ويسرى، رقصت حولها الفراشات وتغزلت بجمالها، غنى لها العصفور فأزهرت مبتهجة.

قال لها (أحبك) ورحل إلى البعيد، اعتقد أنها أصبحت ملكه، غاب سنيناً لم يهاتفها ولم يبعث لها برسائل، وحين عاد وجدها مع آخر وبيدها تحمل طفلاً صغيراً شبيهاً بوالده، اعتكف في منزله وبدأ يكتب أشعاراً على خيانة بنات حواء، وأضحت منشوراته عن غدر النساء.

أنا كوردة عطرة إن استمتعت بعبيري أنعشتك بعطري وان قطفتني جرحتك.

أنا كزجاجة عطر إن استمتعت بعطري أنعشتك بعبيري وان كسرتني جرحتك.

أنا قطة أليفة إن ربت على رأسي ابتسم وأنام في حضنك وان لعبت معي جرحتك.

بيدها الهاتف وتنظر إلى اسمه وهو متصل، قلبها ينبض بشوق ودفئ كبيرين، تتعالى ضرباته في كل ثانية يخيّل إليها أنه سيبدأ الكتابة، ولكنه كان مشغولا بغيرها، يهديها كلمات الحب التي افتقدتها منذ أسابيع، تبقي عينيها على شاشة هاتفها حيث يّزيّن اسمه، ولكنه يغلق دون أن يفكر فيها، وتنام محتضنة خيبتها وجزءاً من أحلام مفقودة.

تعبت هي من حياة قاسية كزوجة أب لا ترحم، الواقع بات يرهقها كثيراً، مهما حاولت تذكر الماضي وجمال ذكرياته، يعود الحاضر بكل مآسيه ليرتسم أمامها ككابوس انتزع من صدر آخر ليمكث في صدرها.

اشتاقت لأيام كان همها الأكبر أن لشجرة التين أوراق كثيرة وسينتهي الخريف وربما لن تسقط كلها، بدأت تحن لهذه الشجرة كثيرا ففيها عرفت أن الأحلام تتجدد كل ربيع، ولكن هذه المرة عاد بثوب آخر، لم تعد ترى شجرة التين شامخة كما كانت في الماضي سعيدة وهي تعاود ارتداء زيها الأخضر، هذا الربيع مختلف وألوان الخريف سلبت منها ربيع آذار، وجاء نيسان لا سعيد كسابق عهده، بل عاد ومعه خيبة آذار، فلكل سنة ربيع مختلف.

يوما ما سأرحل وسترحل معي ضحكاتي وابتسامتي، جنوني وهمساتي، سأرحل عنك، ربما بملء إرادتي أو ربما تكون أنت من قررت وأنا من نفذ، أو يكون عكس إرادتنا، ستبقى لك مني ذكرى طيبة، قبلات، عناق، همسات عشق، ضحكات، ثرثرة حب، ستقف عند الغروب أمام ذاك البحر الذي وقفنا أمامه ولن أكون معك، ستنظر إلى الغروب وحدك دون أن تفكر بالشمس وهي تسقط في عمق البحر كما كنا نعتقد، وعلى ذاك الجبل ستجلس ربما

سترافقك ابتسامتي وضحكاتي ولكن لن أكون هناك، طيفي سيبقى بجوارك يتأملك ولكن لن تراه. بل ستتراءى لك ذكريات أصبحت في طي النسيان.. حين تأوي إلى فراشك إياك ثم إياك أن تذكرني ولو بدعوة صغيرة فأنا لا أريد أن يصلني منك شيء.

كفكف دمعك وابتسم وفكر قليلا أنني كنت يديك ولم تشعر بي، والآن وأنا بعيدة عنك حيث ارقد بسلام لا تتذكرني وحاول أن تنساني كما كنت بين يديك وتناسيتني، أعرف انك تستطيع، فرحيلي سيعني لك الكثير وسيحمل لك من الحزن الكثير حينها ستدرك كم كنت بحاجة إليك ورحلت دون كلمة وداع.

على حافة ذاك النهر الجاري وقفت تملئ جرتها من فيض النهر، في حين وقف قبالتها على الطرف الآخر يتأمل ذاك الملاك بشعرها الأسود الطويل، اعتراها خجل غجري، فركضت دون ملء الجرة، لكن ذاكرتها احتفظت بوجهه، وصارت كل نهار حين تملئ جرتها تراه بابتسامته اللطيفة وقامته الممشوقة، أحبته وهامت به كثيراً، لكنها كمثله لا تستطيع اجتياز النهر الجارف، انتظرا سنيناً وهما على هذه الحال إلى أن تم بناء جسر

يصل القريتين ببعضهما، قفز قلبها من الفرح، ركضت ونسيت أن تملئ جرتها، انتظرته وهي سعيدة لأن هذه المرة تنتظره مكانه الذي اعتاد أن ينتظرها فيه، لكنه غاب ولم يعد أبداً، وبقيت هي حبيسة الانتظار.

ليتها كانت مثلهن، هذه أمنيتها في الحياة، هو كريم في كلام الغزل معهن أكثر، في كل مرة تتردد وهي تحادثه لمَ لا يبوح بمكنونات قلبه، أليست حبيبته؟ أم انه يراها كالأخريات مجرد جسد؟ تباً له أفسد عليها سعادتها، أغلقت هاتفها وتدحرجت دمعة يتيمة هوت إلى القاع، أقسمت ألا تحادثه أبدا فهي المميزة وليست فتاة من فتياته الكثر، لكن بعد مرور ساعات بعثت له لتطمئن عليه وتتمنى في سرها أنت يخبرها باشتياقه ولكن هيهات أن يتكلم ويفضح قلبه.

عاد نيسان يا حبيبي، عاد بنكهة ممزوجة بين الحزن والفرح، هذا الشهر شهد أول لقاء لنا من سنوات مضت، فيه عرفت للحب باباً، طرقته أنت وفتحته لك وثغري باسم، لكن الآن عاد وضحكاتي تختبئ خلف قناع من الأحزان، عاد لكنك لم تعد معه، أيحق لي يا سيدي أن أبكي فيه لأنك مازلت غائباً عني وعن نيسان؟ أم ابتسم لأن كل وردة في ربيعه تغني لنا،

للحب، لأيام ستكون أجمل، عاد نيسان يا سيدي وهو يحمل سلال من ذكريات نيسان قبل تلك السنوات، حين كنا نغني للحب، نرسم أحلاماً، نثرثر بالعشق والهيام، فنيسان مازال في بدايته، أرجو منك ألا تتأخر عني لعلنا نلحق نيسان ونقطف وروده معاً.

كانت تتمنى لو بقي جانبها، يضمها لقلبه كل حين، تراه خائف عليها، يقبلها بنظراته، يده الدافئة تلامس يدها الباردة ومن ثم تخترق إلى صميم الفؤاد، تمنت لو لم يرحل، لو وقف على الباب وبدلاً من الذهاب يعود أدراجه ليضمها، لكنه تواق للهرب، للبحث عن حب جديد يعيد إليه رجولته، وماذا عن أنوثتها من سيعيدها؟

هل فكر في حجم الخسائر التي ألحقها بقلبها قبل أن يقرر العودة؟ هل فكر في قلب قتله لمجرد أنه تاه في هيامه؟ والآن وبمنتهى اللامبالاة يخبرها بعودته وكأن لزاماً عليها أن تستقبله بباقة من الورود، وتخفي خلفها جراحها، سيعود إلى حياتها مجدداً وسيعبث فيها مجدداً، لكن قلبها مغلق له قبل أن يغلق لغيره.

في عينيه رأت تفاصيل الحكاية، عاد إليها بوجه شاحب تواق إلى ضمها والبكاء كالأطفال على صدرها، عاد إليها كفارٍ من حرب أوشك على الهزيمة، أشبه بجندي جريح يجر دماءه خلفه، نظر إليها كطفل تواق لحضن أمه الدافئ، نظر إلى تلك العينين الواسعتين وكأنهما بحر لا مد له وهو الذي سينهار من الظمأ، بكى كما لو أنه لم يبكي من قبل وأمسك يديها لتسامحه، فهي ليست حبيبته فقط بل كانت أمه وأخته ورفيقة دربه، جلست على الأرض ومسحت دموعه بيديها الباردتين فخبأ وجهه في حضنها كغزال يبحث عن مأوى، كطفل يتيم وجد أمه فجأة في حلم مجهول، كفراشة اختبأت في وردة لتهرب من عبث الحياة، مسحت شعره ونام في أحضانها ممسك بيدها بقوة خائف من الحياة خلف أسوار حبها.

دعني أخونك وأعيش الهوى دونك، دعني أخونك وأعيش حياتي دون النظر مراراً إلى تلك الساعة، دعني انتزعك من فؤادي وأغلقه لغيرك ولك، دعني أعيش حياتي كما كانت منذ زمن، ارسم الطبيعة فأتخيل نهراً جارياً من أعالي الجبال على حافتيه ورود بأبهى الألوان وأشجار التفاح على الجانبين ترقص فرحة، دعني اقرأ قصص الحب والغرام فأحقد على البطل وأشفق على البطلة، دعني اكتب عنك فبين أحرفي يوجد نبض ينطق اسمك، دعني أعيش حياتي كما أحب لا كما تحب.

ارحل إذا لم تعجبك لوحاتي، وإذا لم تعجبك كتاباتي، ارحل إذا أردت أن ترحل، لكن قف قليلاً قبل أن ترحل أعد إلي ذكريات وأحلام وبعض الهيام، ولا تأتي إلى قلبي مرة أخرى، سأعيش دونك، ارسم، اقرأ، أكتب، ولن أنس أن أعيش.

كانت كل يوم تقف أمام نافذتها تشاهد طيور الصباح وهي تبدع في تغريدها، تتمنى أن تصبح مثلهم عصفورة بجناحين تحلق عالياً في السماء دون قيود، تدخل جميع الدور والقصور، تقف على الأشجار وتشرب من

ينابيع المياه، جاءها الملاك صباحا وطبع على جبينها قبلة ليجعلها تطير مثله في السماء، لم تصدق أن لها جناحين لتطير وترقص فرحا في أعالي السماء، لكن هناك من كان يترقب تلك الطيور الجميلة، اصطادها وهي تبكي ليقدمها هدية لابن الملك، جلست في قفصها والدمعة تتلألأ في عينيها، وعادت تحلم أن تصبح فتاة تحلم أن تكون عصفورة.

رحلتَ فلم يتغير شيء، السماء مازالت تمطر في الشتاء كعيني حين افتقدك، الشمس مازلت تشرق وتغرب في موعدها، عاد الشتاء أكثر دفئاً هذا العام لذا لم انتبه لفقدك، وتلاه الربيع أكثر سروراً وسعادة، لم أبقَ وحيدة، ذهبت إلى الربيع لوحدي وقطفت الورود، أهديتها لنفسي ووقفت أمام المرأة، قبلت نفسي وزينت شعري بالوردة فأنا استحق الحياة والحب، وها أنت ستأتي ولكن لم أعد أشعر بقربك حتى لو كنت جانبي، سأبقى اعتاد غيابك وحين اشتاق إليك أذهب واقطف وردة وأهديها إلي.

في هذا اليوم قبل عدة سنوات التقيتك أول مرة، كنت خجولاً وأنيقاً جداً لذلك أغرمت بك وفتحت لك قلبي كي تدخله، ربما عشقتك من النظرة الأولى أو ربما عشقتك من المكالمة الأولى، دخلت قلبي وأنرت شمسه وزرعت فيه

أزهار الربيع، شكراً لك يا هذا لأنك كلما حاولت الهروب والتخفي تعود مجدداً في نيسان وكأنك تقول نيساني أهداني إياك وسأكون بقربك دوما فيه، شكراً لك يا نيسان لأنك أهديتني هذا اليوم بوجوده بقربي.

دعني أخبرك شيئاً، ستعتاد تصرفاتي الغريبة كما تظنها أنت، وكما اعتدتُ تصرفاتك الصبيانية، فأنا وإن كبرت مازلت طفلة يفرحني الاهتمام ويقتلني الإهمال، سترى وجهاً آخر لم تألفه ولم تعتد عليه، صدقني هذا الوجه أنت من أنشأه بغبائك، وصار يواجهك بكل ثقة وبرود، دعني يا سيدي استعير منك برودك لأصبح أنت، هذه المرة سنلعب لعبة تبادل الأدوار، هذه المرة لن انحني كالسابق، لن ابكي ولن أحزن، بل سأعبث حتى تنتهي الحياة وأنام ولكن بعيداً عنك وعن خيباتك، فأنت مكابر وأنا لا انحني.

قبل أن تخبرني بواجباتي اتجاهك أو ما يغضبك فيّ أو ما تعشقه دعنا أولاً نجلس على طاولة الحوار وأخبرك من أنت بالنسبة لي؟ وبعدها تقرر هل تكمل كلامك أم تنسحب بكرامتك؟

سنلتقي ذات يوم، أعدك بذلك، ستجدني في درب مجهولة الملامح، ستنظر إلي والزمن غيرني إلى الأجمل، ستنظر إلى تلك الابتسامة التي عهدتها ستراها أصبحت أنقى، ستقف حائراً تتساءل هل أنا من غيرها؟ أم أنها اقتنعت أن الحياة ليست رجل، ولكن أنا يا سيدي لن أنظر إليك فأنت من الماضي، كتاب قديم قرأته فأدمنته، كرهت نهايته فرميته في سلة المهملات، أنت مكابر، وأنا لن أنحني.

أتظن يا هذا أنني الآن غارقة في وحل من الأحزان، أتتخيل بأن وسادتي أُشبعت بعبرات سببها أنت، هل تفكر كثيرا بهذا؟ أنت مخطئ، أتذكر ذلك الدرب الذي مشيناه معا مراراً وتكراراً، ها أنا الآن أسير فيه دونك بفرح رائع وكأنك لم تكن، الآن أعيش حياتي لأول مرة دون النظر مراراً إلى تلك الساعة الهرمة، عدتُ سعيدة من جديد أعيش لأجل نفسي التي أهملتها في الآونة الأخيرة، ستبقى ضحكتي عالية ولن تطفئها أبد..

ستمضي هذه الأيام كما مضت السنوات التي قبلها، وستأتي أيام رائعة كجمال آذار، سأجلس وحيدة أتفحص دفتر الصور وأفكر كيف عشقت فيما

مضى كائن كهذا، سترحل ذاكرتي إلى البعيد وأتذكر كل شيء فأنا امرأة كاللعنة لا تنسى بسهولة، وبعدها أغلق دفتر الصور وابتسم لأنني لم أحرق سنوات قادمة من حياتي مع ذكر لم يكن رجلاً خلق الربيع ليبتسم لي، ولن أدع سنوات عمري تحرقها أنانيتك.

أأكتب عن دروب مجهولة الملامح فيها افترقنا، وتاهت في بئر الذاكرة؟

أأكتب عن ألم سنين وأعوام من القهر؟ عن ساعة بنت العنكبوت بيتها عليها وهي مازلت تدق في ذات موعد الفراق؟ عن خيبة تلاها جرح تلتها طعنة في القلب؟ عن غدر سهم مازال عالق في الظهر ينزف دماً؟ سأكتب عن سعادة هاجمتني، رفضت الاستقرار سوى في قلبي؟ فذلك الملاك الذي ربت على كتفي وأومأ لي برأسه أن كل شيء سيكون بخير، كان صادقاً فلا حزن يدوم.

في منتصف الطريق افترقا، وأكملت الدرب وحدها، وفي نهايته توقفت عند حافة الذكريات، تريد أن تبكي، أن تصرخ لتخرج بركان من الألم، لكن كبتت حزنها حين نظرت إلى أعالي السماء، ابتسمت ومسحت دمعة يتيمة كانت ستسقط، ونظرت إلى تلك الوردة الصفراء التي طالما تمنت أن يهديها

إياها، قطفتها وأهدتها لنفسها وأكملت دربها وهي تغني لحياة ربما ستكون رائعة.

أصبحت بفعل ضغوط الحياة قوية، فعند كل صخرة صماء كانت تقف قليلاً، ومن ثم تبتسم فتزيل الصخرة لتبدو أقوى من ذي قبل، تمضي فرحة تشع منها ابتسامة نصر وضحكة طفلة، مسحت الدمعة وركضت نحو عالم آخر تبدو فيه الدموع مستحيلة، فيه درب طويل وصعب لكنه ليس بمستحيل.

حين نظرت إلى وجهها في المرآة لم تعرف نفسها، أهذه ذاتها التي كانتها قبل سنة من الآن؟ تأملت عبراتها القاسية والحزن بادٍ على وجهها؟ فكرت في سنين مضت وغاصت في أعماق المجهول. كم تغيرت وبدت الآن شابة يشع من عينيها لغز مبهم ومتاهات من ألم، ابتسمت ابتسامة صفراء ذابلة، وجلست تكتب، لكن القلم هرب منها كعادته ولجأ وحده إلى (الأمل)فكلماتها مهما حاولت إسعادها تظل مسكونة بالحزن، بفرح ينبت بين سطور الألم.

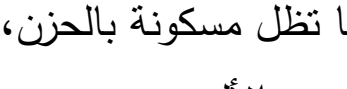

وفجأة أحبها، عشقها، تاه في هيامها، اشتاق لها، ركض إليها مسروراً، ولكن للأسف، وصل متأخراً، وجدها في حضن آخر، لعن نفسه ألف لعنة لأنه فرّط في حبها، نظر إلى اليد التي تداعب شعرها، كانت قبل أشهر يده، وتلك النظرات كانت له، وذلك القلب أيضاً كان ملكه، ولم يكن يخفق سوى له، حاول أن يقترب، لكن كان ثمة شيء يمنعه، ربما عودته المتأخرة، أو غدره وخيانته، بقي واقفاً، صامتاً، يتمنى عودتها إلى حضنه من جديد، ولكن هيهات تفعل ذلك، فالقلب الذي رماها لن تعود إليه مجدداً.

هل تظن أني سأترك الكتابة لأجلك؟ إطلاقاً، فكما تعرف بأن الكتابة عالمي، أتعرف متى أبكي؟ لا حين تغادرني، بل حين ينكسر قلمي، حين أتمنى الكتابة ولا أجد أين أكتب، منذ فترة طويلة بكيت كثيرا حين كسر قلمي احتضنته بين ذراعي وأطلقت تنهيدة طويلة، كان القلم بمثابة عاشق لي، وحين سقط جريحاً دفنته في أول مقبرة للورق، هذا كان همي وبعد مرور هذا العام تعتقد أني سأبكي عليك أو حتى اشتاقك، أنا امرأة لا تبكي إلا على حروف ضاعت أو هربت منها.

ربما تعودنا على وخزات الألم، ربما قلبنا تحجر وتحجرت معه الدمعة، ربما أدركنا بأن دموعنا ما هي إلا وسيلة لزيادة الألم وليس وسيلة لتخفيفه، مهما ندبنا وبكينا فلا شيء سيتغير، والماضي لن يعو .

حين رحل ذاك الغائب كنا معاً، أفراحنا، أتراحنا، ضحكاتنا، همساتنا، جنوننا، كلها كانت ممزوجة بالمحبة، وبعد مضي سنوات نحو المجهول عاد ذاك المسافر، لكن لم يعد هناك ضحكات لنضحكها، تغيرنا لم يبق خل مع خليله، عاد والفراق قد لاح له ولنا، عاد وفي كل عين دمعة تبكي غائبها، وفي كل قلب جرح يبكي خائنه، عاد وقد تغيرت الأقدار وتغير المكان والزمان والنفوس.

دعني أبكي ولا تمسح الدمع، دعه يهطل مدراراً ولا توقفه، اترك العبرات تسيل شلالاً وانظر إلى عينين ذابلتين ولا تتكلم، استمع إلى صمتي وستجد الكثير من الجروح، حينها ستحدثك دمعة تمردت ورفضت السقوط ، ستحدثك عن قهر وألم لن يحس به إلا تلك الدمعة، إياك ثم إياك أن تطلب مني الكفّ عن البكاء.

هو يكذب وتدري أنه يكذب ويدري أنها تدري أنه يكذب ومع ذلك مستمر في كذبه وتمثيله، ممثل بارع لم يجد جمهوراً كافياً ليظهر إبداعه في التمثيل فقرر التمثيل عليها، وهي جالسة لوحدها في المقعد الأول تنتظر انتهائه من التمثيل لتصفق له بحرارة، وعقلها يفكر هل سينهي المسرحية لصالحها ويقف ويعلنها على الملأ أن لا حبيبة له سواها؟ أم سيبقى في فنه وإبداعه؟ وهي هل ستبقى جالسة على الكرسي ذاته تشاهد تمثيله الذي كان في يوم من الأيام أكثر براعة وفناً، اليوم قد ملّت وحدتها وهي تشاهد المشاهد ذاتها.

لم أتفاجأ برحيلك أبداً، كنت على يقين بقدوم تلك الساعة حتى وإن تأخرت قليلاً، كنت أقرأ كلام الفراق مكتوب في تفاصيل وجهك وإن لم تحكه،

جميع تصرفاتك باحت بما هو قادم، وغم كل محاولاتي في تجاهل ما كنت أراه فيك، إلا أنني تنبأت مسبقاً بالنهاية.

تأمل الصبار جيداً فبين أشواكه ينبت الزهر، وكأنه يختصر حكاية يأس بين طياته يزهر الأمل.

لا تلمني إن لم أستطع إعطاءك قلبي كما وهبتني عمراً زائداً من الدفء، لا تلم مشاعري الباردة إن لم تستطع اجتياحها، فقلبي كان ملك لشخص جرحه وشتان أن يشفى من جديد، ولكن يا صديقي الأمر بين يديك باستطاعتك أن تحيه كما باستطاعتك أن تمته.

كأن الهروب منك كان هو الحل الأخير، انهمرت كلماتك الأخيرة علي كوابل من رصاص (من يحب لا يهرب) انهمرت دموعي بصمت وأحرقت وجنتي وأنا ألملم حقائبي وأحاول مسرعة الرحيل عن مكان تسكنه أنفاسك، حاولت جاهدة منعك من المجيء كي لا ترى دموعاً حفرت أخاديد على

وجنتين غشاهما النمش، كي لا تلمحها وهي تنسكب على قلب هام بها، لكن القدر له رأي آخر فاق كل توقعاتنا.

وكأن الفراق واقفاً لنا بالمرصاد، وجوه عابرة ترحل لتأتي أخرى، وحدك من وقف في المنتصف رافضاً العبور كغيرك، وحين جاء دورك عبرت إلى النصف الآخر من حياة لن أشاركك بها، وحدك من أوقد في فؤادي لهيب الشوق، كان ذلك سيحصل عاجلا أم آجلاً، لنفترق ونحن في بداية الدرب خير لنا من الفراق وقلوبنا متعلقة في بعضها، أليس ذلك أفضل لنا؟

التقيتك غريباً فظننتك عابر سبيل في محطة من محطات حياتي، لم أعرك اهتمام، ولم استقبل اتصالاتك بادئ الأمر، كنت بنظري الفضولي الذي يقتحم حياتي دون استئذان لذلك لم أأبه بك وبمحاولاتك المتكررة لاستمالتي، والآن وبعد أن أصبحت حبيبا أتركك لقدرك، واترك ذاتي لقدرها لأنه في النهاية لا قدر يجمعنا.

كنت كلما أهرب منك أجدني أهرب إليك، حين افتعلت المشاكل لنبتعد افتعلتها لأني أريدك أن تبقى ذكرى جميلة في قلبي، أردتك بطلا لرواية أكتبها، وأقرؤك صباح مساء، أردتك إنسانا عظيما في لوحة أرسمها، أعلقها على جدار قلبي لأشاهدك في الدقيقة ألف ساعة، أخبرني بالله عليك إن كان هناك من يشتاقك أكثر مني.

وكأنه يودعني الوداع الأبدي، كأنه راحل إلى حيث الهدوء، بعيداً عن ضجيج الحرب، كلمات قليلة كانت كافية لتشعل النار في قلبي، حين قالها لم أشعر بشيء سوى بدموع حارة تلهب خديّ، حاولت أن ألملم بقايا نفسي لأكون أقوى ككل مرة يرحل فيها، ولكن عبثاً، التقينا صدفة، فرقنا القدر، ربما ذات يوم نلتقي في درب لا يشبه الدروب التي تواعدنا بها، دروب بعيدة كل البعد عن حياتنا، بصدفة سنلتقي يوماً.

أمنيتي في الحياة يا صديقي أن يعود الزمن إلى الوراء بضع سنين كي التفت ورائي إلى دموع تركتها خلفي باكية، أمنيتي يا صديقي أن أراها صدفة لأضمها إلى قلبي خشية مغادرتها مجدّدا، أمنيتي يا صديقي أن أراها ولو لجزء من ثانية لأبكي عند قدميها لعلها تسامح قلبي وتغفر زلاته، لكنها الآن

يا صديقي بعيدة، جسدها بعيد، قلبها بعيد، ليست لي يا صديقي، ما عادت لي، ما عاد يحق لي التفكير بها.

في هاتفي رقم تراكم الغبار عليه، أراه كل ليلة، يجذبني حنيني إليه، يقفز قلبي كطفل من مكانه إن رآه متصلاً، ثوان قصيرة يغرقني في حالة صمت حزين، أغلق هاتفي وأتوسده باكية فالاتصال به أعظم خطيئة.

أدركت حجم قوتي حين رأيتك متصلاً الليلة الفائتة ولم أراسلك، خشيتُ صدك وردك البارد، أدركت حجم قوتي حين سقط هاتفي على الأرض ولم يسقط قلبي معه رفعته بكل برود دون أن أتأمله حتى إن كان قد انكسر، أدركت حجم ضعفي حين تذكرت أني على موعد لفراقنا غداً سيكون فتوسدت ذكرياتك وبكيت.

حين كانت تذنب وتدري ذلك، تعود لتجد سجادتها بانتظارها، تتوضأ وتصلي لخالقها، تقرأ كتاب الله لتريح نفسها من دوامة الحياة، تغرق السجادة بدمع

غزير سائلة الله أن يعفو عنها، تخرج للعامة، الناس تشتمها، وربها يعفو عنها.

الفراق كان سهلاً، هو قرار اتخذته أنت، ونفذته أنا، كان سهلاً للغاية، لكنه قاسياً للغاية.

أتدري تلك الياسمينة البيضاء والتي قطفتها للتو لتزيّن بها شعر فتاة تراقصها على أنغام موسيقى بيتهوفن، أتدري بأني زرعتها بكلتا يدي حين بدأت دقائق الانتظار تسير بسرعة إلى أن بلغت سنينا، نمت وكبرت، أسقيها كل يوم لأعود وانتظرك على ذات مقعد لقاءنا الأول، لكنك كنت تخون الساعات ولا تأتي.
الآن ياسمينتي غطّت مقعدي بأكمله ولا مجال للجلوس عليه، كيف أنتظرك؟ وأين أجلس؟ لعلك تخون الخيانة وتأتي!

لا بأس إن كانت السلحفاة بطيئة، ففي نهاية المطاف سيكون لها ما أرادت.

لا تحزن إن تأخر حلمك، فالأيام تسير بسرعة كبيرة، يوم تقف على قمة نجاحاتك وتتذكر كم صبرت وتحملت، حينها ستندم على أوقات يأسك ولو حينها عملت بجد لكان نجاحك أبهر.

على مدى أربع سنوات في الجامعة كان يحجز لها ما تبقى من المقعد بجواره، وحين تصل متأخرة كعادتها يهمس في أذنها (سيبقى هذا المقعد محجوزاً لك مدى العمر) وفي زفافه كانت أخرى تحتل المقعد جواره.

حينما تخبر من تراه بماضيك سيستعملها كورقة رابحة ضدك، إذا كان قلبك طيب ونواياك نقية وصافية فهذا لا يعني بالضرورة أن العالم الذي تسكنه فيه هذه الميزات. فنحن في غابة مثلما فيها الحمل فيها الذئب.

تعشق المرأة كاتباً لأنه تدرك كيف يرسمها حروفاً يحييها في كتبه، إن أحبها جعلها أميرة لرواياته، وإن هربت منه استدعاها بقلمه وكتبها شعراً.
يخاف الرجل من الارتباط بكاتبة فهو ذو كبرياء لا يرضى أن يتشارك هو واللغة في حبها، فهو يرفض أن تكتبه، لأنه يدرك إن هرب منه ستنشقه على دفتر الكلمات.

ما أروع الماضي حين كان الياسمين يتربع على عرش المحبة كعروس يوم زفافها، بياضه أروع من الثلج نفسه، ما أروع رائحته وهي محملة بقطرات من المطر! الآن كم نشتهي تلك الأيام، فياسمين بلادي أصبحت بلون الدم ورائحتها تفوح منها رائحة الشهداء، أما آن لك أن تزهري يا دمشق؟

لم ينظر إلي حينها، كان عاجزاً عن ذلك، ولكن فاجئني سؤاله، هل تحبينني؟ وحين لم يتلق جواباً مني، رحل وغاب في الظلام، لو فقط نظر إلى عيني وهما تلمعان حباً، لو أنه فقط اقترب واستمع إلى نبضات قلبي الهامسة باسمه، ما كان ليرحل حينها، ولكن للأسف كان قد قرر الرحيل قبل سنوات وها هو الأوان قد حان، فلم يلوم صمتي؟

أقسم لها للمرة الألف أن لغيرها لن يكون وإنها لغيره لن تكون.

ولكن العشيرة والقبيلة أقسمت أنهما لبعضهما لن يكونا.

وعند امتثاله لأوامر قبيلته وتركها وحيدة على قارعة الحب تندب حبها لوحدها.

عاد إليها بعد سنوات ليست بالقليلة ليذكرها بحبه لها فذكرته بوعد قطعه لها ولكنه خذلها وخذل الحب باسم العشيرة.

إذا هرب منك من تحب، فلا تدع قلبك يهرب إليه، واستعد لحب جديد وقصة جديدة، فربما كانت هذه أول جرعة من كأس الحب، فانتظر حتى تشرب الكأس كله، وبعدها لك الحكم، فالحب ليس للحبيب الأول بل للحبيب المخلص.

وأتساءل مَاذا أعطَاني حُبك سوى خَيبة الأمل، سوى الاستيقاظ في موعد رسالتك اليومية عند الثالثة فجراً لأتفقد هاتفي، ومن ثم ألعن نفسي المائة بعد الألف أن رقمي ما عاد في حوزتك، ورقمك أضحى من المحرمات، مجرد النظر إليه جريمة لا تغتفر.

حين غادرها، غادرها بصمت، حتى وقع أقدامه لم يكن لها أثر على الرمل الأبيض، وكأنه فرد جناحيه وطار بعيدا عن عشّها ليحط الرحال في عشّ آخر.

أدركت حينها أن لا أمل في عودته، فمن رحل بصمت لن يعود ومن رحل بوداع سيعود بالتأكيد، تمنت لو أنه وقف ثانية واحدة يودعها بنظراته ولكنه

كان خائف من التقاء العيون الساكنة حينها لن يرحل أبدا، وهذا ما كان ليحدث.

في ليلة سمر جلسا، جذبها إليه فهربت منه لتنظر وحدها إلى السماء إذ أغرتها النجوم المشعة، وأغرتها أكثر تلك النجمة الكبيرة، تركته وحيداً على رصيف الحب جالس، وبدأت الصعود إلى تلك النجمة، لم تكن تعلم أنها تصعد على جثة حبه وهيامه، أغرتها النجوم فأنستها العهود، وحين قطفتها وحملتها بيديها الاثنتين هوت إلى أديم الأرض من حيث بدأت، فلم تره وإنما رأت جثة الحب وحدها بانتظارها.

أشتهي معك شتاء لا ينتهي، ومدفأة تجمعنا وأكواب قهوة نتبادلها، وكتاب واحد تقرأه بصوتك العذب فيفيض قلبي حبا وحنانا، اشتهي معك عمرا كاملا من الحب لا خصام فيه، اشتهي معك واقعاً نتقاسمه وبيتاً نبنيه وهموم نبكيها وطفلاً نربيه معاً، اشتهي معك حياة كاملة لا خيبات فيها، لا وجع فيها.

جميل أن تجد من يسعدك في حياتك الكئيبة، وجوده معك يشعرك براحة كبيرة..

يستقبلك بابتسامة ويصافحك بمرح، يجمع تبعثرك ويرمم انكساراتك، يشتري لك لحظات الفرح، ويسعى جاهداً إلى اختراع سعادتك، إن لم تجد هذا الشخص في حياتك حينها قف أمام المرآة وستجده.

خبأتك بين جفني وأغمضت عيني عليك كحلم جميل أخشى الاستيقاظ منه.

لكنك كعادتك هربت إلى عيون لا تراك وتركتني وحدي أستيقظ على أوهامك المؤلمة، على حدائقك الملتهبة والتي أحرقتها في قلبي حين أعلنت الرحيل.

كنت هناك وأنا هنا بيننا مدن لا تنتهي وأحلام لا تنطفئ، بيننا بحار لا نعرف العوم فيها، بيننا حدود، بيننا جنود، بيننا حب لا ينتهي وآلاف الذكريات التي ستلد في لحظة من لحظات الحياة، بيننا كلام لم ينتهِ ووعود لن تنتهي،

فمتى سيصبح لنا موعد هنا في أرض لم تطأها قدماك، أو تدبر لنا الأرض

موعداً هناك في أرض لم تطأها قدماي، حينها سيعانقنا الحب للأبد وتنفذ الوعود وتلغى الحدود..

وطني ينزف وفؤادي ينزف معه، أخذوه ورحلوا إلى البعيد وتركوني وحدي أقتات على أوجاعه، بطاقة لاجئ أعطوني، انسوني هويتي، غيروا دروب العودة.
محوا خارطة وطني ومزقوا أعلام بلادي، وهذا الطير من فوقي يحملني لأعود إلى وطن أقسم أن لا أمان ولا حب خارج حدوده، سورية يا من تعانقين الشمس سامحينا.

غرق الجميع في نوبة من البكاء بعد أن جاءهم خبره، وبلحظة أعلن الجميع الحداد.

وحدها من كانت تقف صامتة، تحاول استيعاب الصدمة، رغم ما أحدثه رحيله في قلبها من حرائق وأعاصير جارفة اقتلعت كل ما في قلبها من حياة، إلا أنها جلست قبالتهم تبتسم لهم كي تنسيهم الهم والألم، لم تسلم من

شرهم، سرعان ما اتهموها بالشماتة لموته، والفرح لحزنهم. ونسوا جميعهم أنه كان الأوكسجين لرئتيها والحياة لقلبها والدم لجسدها.

في زحمة من العمر التقيتك، نسجت معك أجمل الحكايات، عشت معك تفاصيل الأشياء وطقوسها، حلمنا معا حين كنا نعد النجوم بغد أفضل، ولكن حكايتي انتهت بمأساة، وحكايتك أنجبت حب جديد.

أيقظتني رسالتك بعد منتصف الليل تخبرني بحزنك على يتمك الجديد، هوت عبرتين من رسالتك المقتضبة وحاولت أن أصرخ في تلك الرسالة الغبية لأخبرها أن حزني كان مختلف حين رحلت بعد أن خبئت عمري كله في قلبك، رحلت بعدما ملئت حقائبك بأيامي، رحلت بعد أن وضعت سعادتي في عينيك، دون وداع رحلت، عن أي حزن تتحدث؟ أغلقت هاتفي وأغمضت عيني كي لا تخيفني عبراتي وتوسدت ذكرياتنا وبكيت.

تزوجيه كاتباً ولا تخذليه، سيحلق بك في فضاء الأحلام، سيرسمك شعراً، نثراً، خاطرة، فصلاً كاملاً في رواية، سيجيد رسم الفرح في قلبك والحب في عينيك، سيتفنن في اختراع الحكايات المدهشة، سيأمر القلم ليكتب عنك أروع ما سطره العرب من غزل، سيمنحك دور الأميرة في رواياته، بطلته ستكونين،
وهو بطل حكاياته كلها والتي محورها نظرة من عينيك، أحبيه كاتباً لكن إياك أن تخذليه.

بينما كنت بانتظارك وكنت لاهياً عني، كان حينها نظري مثبت على شاشة هاتفي منتظرة رسالة منك، ولكن الرسائل هطلت إلى هاتفي من صديقات لا أذكرهم ونسيت وجودهم في حياتي بعدما أدمنتك، حتى شركات الهاتف بعثت بعشر رسائل تنبهني فيها أن أشحن بطاقتي، ولم يخلُ الأمر من رسائل لشركات مجهولة تقدم عروضاً شتى، وحدها رسالتك التي انتظرتها ولم تأتِ.
أتراها غيرت عنوانها؟ أم باتت لا تعترف بزمن الرسائل؟

وحدهم من يزورونا في أحلامنا، من يستحقون الحب..وحدهم من نكتبهم، ولأجلهم ينزف القلم على الورقة لتحيلهم إلى أبطال فنحلم بهم من جديد.

وهبتني من الوعود الكثير، منحتني من العهود ما لا يعد، وفي لحظة خاطفة كلمح البصر، ساعة متمردة عن الحياة المعتادة، حيث فتحت عيني ورأيتك قد فارقت جسدي ولكنك لم تفارق روحي، صمت وصدى صوتك يتردد في أذني، اختفيت وبقيت صورتك في عيني مرسومة، رحلت وظلت أنفاسك في قلبي تهمس باسمك، غبت ولم يغب طيفك فما زال بجواري يمزقني..

أخاف من وداع لا أمل في لقاء بعده.
أخاف من فراق تنسى تفاصيله وتمحها الأيّام.
أخاف من لقاء تنسى فيه من تكون.
أخاف من صدفة تجمعنا وبحضنك طفلة تلاعبها، تناديها باسمي الذي أضحى لها، وتهمس لها وعيناك علي محدّقتان (أحبّك جدّاً).

أخاف من اتصالك المفاجئ منتصف ليلٍ شتوي، يأكلني الحنين فيه، تبثّني أشواقك، أنظر إلى زوجي وهو يطالعني بنظراته لأخبرك أنّ الرقم خاطئ. أغلق الخط وصدى أنفاسك ما زال يتردد في ذهني.

إلى أين هربت أحرف رسالتك الأخيرة؟
أتراها ضلّت طريقها؟ وأنار لها غيري درباً آخر اهتدت عليه، واستقرّت هناك،
في حين بقيت الرسالة لوحدها معي، تؤنس وحدتي وتبحث عن حروفها التي سالت منها وهي تبحث عنك.

أحبّته وهامت به بكل ما ملكت من هيام، حتّى شعرت أنه أصبح جزءاً لا يتجزّأ من حياتها.
وحين أرادت البوح له بأعلى صوت (أحبّك) اختنقت بعبراتها وعاد الصمت يغلبها كما كان يلعب في ساحتها. أدركت أخيراً أنه ما عاد لها وهذه الكلمة حذفت من قاموسهما منذ قرابة قرن.

فقط بعد الفراق تزيّن الدنيا من كانوا لنا أحباباً، ورحلنا عنهم بملء إرادتنا، حينها لا مجال لاستعادة لحظة واحدة من تلك اللحظات، ستعيدها الذاكرة لك لتندم ساعة لا ينفع الندم. لتصرخ في تلك اليد التي كانت لك يوما. فيأتيك صوت من أعماق الماضي ويهمس في أذنك أنها ما عادت لك.

كن قويّاً لأجلك أنت، لا تدع الدمع يخذلك أمامهم، لا تدع صوتك يرتجف لوداعهم، لا تلوّح لهم إن آلمتك يدك، لا تقف لهم كي لا تهينك قدميك وتسقطك جاثياً على ركبتيك، باكياً ذكراهم الطيّبة.

تبّاً له حين رحل دون وداع، ودون الالتفات إلى ماض جمعهم، لم تبكه ولم ترجه، لأنها كانت على موعد لفراقه لكنها جاهلة بذاك الموعد.
ومع ذلك انتظرته سنين على أمل أن يأتيها هامساً لها برواية حبّ كعادته حين يغيب، ولكنّ أنّى لمن رحل بإرادته أن يعود؟
نبض قلبها بحب آخر، أسمى من حبّه وأطهر، فأعطته يدها وأخذها إلى عالم بعيد عن الغدر والخذلان.

وجدها يضمّها صدر آخر تبكي عليه، يشعّ منه الحنان والعطف، كطفلة يتيمة وجدها تخشى هروب الأمان منها.
عاد إلى حيث كان يكره النساء قاطبة ويكتب عن غدرهن بحقّ رجولته.

أحبك أنت ويكفيني أن أزرع ملايين الورود التي تشبهك
أحبك أنت ألماً، عذاباً، ولهاً، أباً، أخاً، وألف ألف رفيق
أحبك أنت ويكفيني السير معك دون أن تكون معي، ويكفي لعينيك أن تبقى قرينتي إلى الأبد.
يكفي للورود أن تتغزّل بك صباحاً ومساء وطوبى للياسمين بابنها الجديد.

مهما كثر من حولك المعجبين يبقى هناك من يخفق قلبك لذكره وعطره، مهما كثرت الأرقام في هاتفك يبقى هناك رقم مميز باسم مميز ونغمة مميّزة، مهما كثر من حولك الزائرين يبقى هناك شخص واحد حضوره يطغى على الجميع.

إن هددك بفراق طويل أحزمي أمتعتك وغادري قبله.
إن هددك بهجرٍ مرير اهجريه ولا تلتفتي إلى الماضي الحزين.
إن هددك بدموع على العيون ستكون بإمكانك اقتلاع عينيك ورميها أمامه إن سالت على خدّك دمعة واحدة.
أخبريه أنك أنثى لا تهدد.
أخبريه إن كان هو السيّد فأنت ملكة على عرشه ستتوّجين.

أنا جزء من روحك
وشريان من قلبك
خلق قلبي لينبض لك
خلق عقلي ليفكر بك
خلقت عيناي لتراك كل حين

خلقت يداي لتتلمس جبينك في الدقيقة ستون ساعة
وخلق فمي ليقبّل كل ذرّة فيك
فلا يعقل أن أكون لغيرك
هل أدركت من أنا؟
أنا التي أهواك
وأحيا بك ولأجلك
فأنت هيامي الأبدي
وأنا روحك التي تزول ببعدك

تعال نفترق ونعشق من جديد.
تهاتفني ساعات لا تنتهي، تحدّثني تفاصيل يومك بالثانية والدقيقة،
تخبرني عن جارتك المراهقة والتي تتربص بك كل حين.

تعال نفترق ونثمل الحب من جديد، أفتعل المشاكل فتضمّني حناناً
ابتعد تقترب، أثرثر تصغي، اصرخ تصمت.

تعال نفترق لنشتاق ونحنْ ونبكي، ويهرول كل منا إلى بعضه الآخر.

تعال نفترق لترسم على باب بيتي قلباً ينبض فيه الحب من جديد،
لتمنحني وعود بعشق لذيذ.
تعال نفترق لنعش الحب كما يليق بنا.

سأزرع الأرض ياسميناً وأرويها من فيض حبّي، فتتمو كي تكبر حباً وعشقاً. تمر أسفلها فتهمس بحروف اسمك وتسقيك من شهد حبي.

وحدي مشيت في دروب جمعتنا يوماً، نادتني طرقاتها لتحتويني كما السابق، سمعتُ صوتك هامساً من أعماقها، تغازلني وتداعبني، لكن سرعان ما أفقت من خيالاتي مرتعبة. فلم ألمح سوى بقايا حكاية حب تنبض بروح الأمس وكأنّها ما كانت.

وإن سألتني ألف مرة بعد الستين ألف من أكون؟
سأقول لك ككل مرّة تعشقني فيها:
أنا من ضلعك خلقت، وإلى قلبك أنتمي، وبين حناياك أعيش.

في زحمة حياتك ودوران عقارب ساعتك السريع باتجاه المستقبل
وسرعة هروبك من جحيم الحاضر، تجد يداً تمتدّ إليك لتنتشلك من أوجاع
واقعك وتسحبك إلى الماضي البعيد، حيث كانت لك ذكريات لا تحصى.
ساعة واحدة تعيشها في كنف الذكريات تنسى هزيمتك وتتخلى عن مستقبلك.

مشيت وحدي ألملم جراحي.
أحتضن أحلامي، أضمّ خيباتي
أطوي صفحاتي الماضية.

مضيت دون رؤية أيديهم ترافقني ولا عيونهم تشيّعني.
دونهم رحلت إلى عالم أنقى من عالمهم.

عالم أصرخ فيه عالياً، لعلّي أجتثّ نفاقهم من جذور قلبي.
لعلّي أستفيق على وقع أقدامهم وقد رحلوا من قلبي إلى الأبد.

هل يحق لي أن أحلم بالمستحيل؟
أيحق لي السفر إليك بأحلامي؟
أيحقّ لي البوح للدروب المنسيّة بمشاعري وتلاوة أشعاري عليها؟
أيحقّ لي استباحة قدسيّة حبك فأناديك حبيبي؟
أيحقّ لي الضياع في سراديب عشقك؟
قل لي: يا من كنت هواي، ماذا يحقّ لي؟

التقينا بعد أمنيات كثيرة وتواعدنا بعد انتظار مرير
وجدتك بعد بحث عميق.
وفي النهاية أجدني أستيقظ على زلزال رحيلك من حياتي.
على وقع خطواتك في قلبي.

وإني لأراه في سراب من خيال، في أحلام في الظلام
يطرق باب قلبي ثلاث، أرفضه في صمت فيأبى العودة، يعانق مخيّلتي ويحتضن آلامي، يمسح عبراتي، أعاود رسمه في سقف غرفتي وأحاوره كالمجانين، وحين يشتدّ الحنين، أغمض هاتين العينين وأستحضره خيالاً في سراب.

أتيتني نادم، عبراتك لا تنتهي، توسّلاتك لا تنطفئ.
تخبرني أن أعود طفلة بين ذراعيك تلاعبها، امرأة بين يديك تغازلها.
أنسى السنين وعلقمها، وأعود إلى رياضك مرّة أخرى، قطّة تمرح في حواريك الضيّقة.
أتيتني نادم وفي قلبك عهد حبّ جديد لقلبي الصغير.

أحببتك بجنون عاشقة وسعيّت جاهدة لإصابتك بمسّ جنوني، كنت تلميذة بليدة فلم أستوعب رفضك لمشاعري، حاصرتك بسيلٍ من المشاعر ومارست عليك الغيرة. وفي النهاية أكملت حياتي مكتفية بحبّك واكتفيت أنت بهروبك مني.

⌘ ⌘ ⌘ ⌘ ⌘

أشعر وكأنني أقف في دائرة يتفرّع منها دروب شتّى
نصفها مظلم، والنصف الآخر مغلق.

⌘ ⌘ ⌘ ⌘ ⌘

عد إلى حلم جمعنا، عشقنا فيه وتهنا
إلى خيالٍ ضمّنا، رسمنا فيه أحلامنا وحبّنا

⌘ ⌘ ⌘ ⌘ ⌘

يظنون أنها قوية والابتسامة ترسم أملاً على ثغرها المبتسم، يظنون أن الحياة في كفيها تلعب وتمرح فتضحكها، يظنون أنها ربيع لا يتبدل وأمل لا يزول، ولكن الخريف هو من يلعب في أوردة قلبها فلو حاول أحد منهم

احتضانها لبكت بقوة أربكت قلب العالم وأوقفت أنفاسه.

تعانقت الأيدي لجزء من الثانية، تشابكت القلوب لوهلة، هبّت رياح الفراق لتترك اليد الباردة وتحلق وحدك نحو عالم بعيد، عالم محال علي وصلك، وتترك يدي تغرق في قاع من الحنين، تلطخت في بحور الشوق ونزف القلب اسمك وسالت العين عبرات سطرها حروف الوعد بالبقاء والعهد باللقاء.

لم أعتد غيابك كثيراً، أرهقني الوقوف زمناً على أعتاب حياتك، استحلفتك بالله يا من أنبته قلبي ألا تطيل الغياب، لا تدع الشوق يتحول إلى ذئب ينتظر ليلاً طويلاً ينقض علي فيحيلني إلى جثة تبحث عن روحها في خزانة الماضي،

أراقبك من بعيد والعَبْرة تطفو في عيني حتى تكاد تغرقني، أتأملك كسمكة صغيرة تخشى العوم في اليابسة، وأنت، آه منك أنتْ ترجّلتَ على قلبي دون أن تخلع نعليّك، كنت تهرول بين نبض حياتي وكأنّك لم تكن ساكنيه يوماً.

فارأف يا مهجة الروح بقلبٍ ذاب في غرامك، كان لكَ الروح وكنتَ له العدم.

لا أرغب أن تفهمني كما تريد، تحاسبني على اعتقاداتك الخاطئة وظنونك السيئة دون أن تبادر لسؤالي ما كانت نيتي أو ما كان قصدي، أكره ظلمك إياي،
فلا طاقة لي لأبرهن لك العمر كله إنها محض تكهنات منك لا أساس لها عندي، أنني أنقى من كل هذه الأفكار، فلا أود أن يخب ظنك بي حين تحكم علي من تلقاء نفسك، ولا تقل لي أنني ككتاب مفتوح لك فهمتني من العنوان، طلاسمي لا يفهمها سوى من تعمق بقراءتي وأحبَّ كل سطر فيّ.

أمي بين البراكين التي تهيج بداخلي وعذابي من العالم الخارجي، كان بقاءك هو الخيط الوحيد الذي يمنعني من الضياع.
وجودك هو من يبقيني في سعادة لا يمكن وصفها.

تتمرد حواسي علي في كل مرة أفتح عيني فلا أرى سواك، وحين أغمضهما

وحدك من يبقى في ظلمة العين يقتات بقايا حبي.

أستطيع تجاوز الأشخاص بسهولة ويسر حتى لو كانوا ذو تأثير كبير، ولكن تبقى في ذاكرتي الأحداث، المكان، اللحظة، الرائحة، الصوت، ربما ابقى عالقة بهم ردحاً من الزمن، لا أستطيع نسيان ذكرى زرعوها فيّ سواء كانت سعيدة أم لا، يرحلون وترحل أطيافهم وتبقى أعمالهم شاهدة على مكانتهم في قلوبنا، وأعمالهم هي التي تقرر إعادتهم إلى قلوبنا أم نفيهم إلى خارج الفؤاد.

يظل المهاجر يحلم بمستقبل ينعم به، يحذف منه راء الحرب ويقلب الألم إلى أمل مشع براق. تنقضي السنون وهو غافل عن حاضره ومستقبله متناس ماضيه، ينهل من مالها وهي تنهل من عافيته، حتى يصل إلى نهاية النهاية. وهو منهار فارغ من كل شيء إلا من بضعة أمراض تأكل جسده، فقد ضاع منه شبابه ونسوه أهله أو تناسوه.

وهنا نتساءل ما فائدة مال الغربة وأنت تعيش الوحدة وتتجرع ويلاتها، وحين العودة لن تجد يداً واحدة تلوح لك أو عين تدمع لرؤياك أو قلب يخبرك بشوق طال انتظاره.

وآخر قرار اتخذته هو (النوم) نعم ستنام قريرة العين، مادامت لا تملك قدرة نسيانه، ستنام لتحلم به، فالحلم بالنسبة لها أفضل من شبح الحنين وكابوس الاشتياق، هي لا تملك حتى قدرة المحاولة على نسيانه، لكنها ستحاول.

لم أعد أراك كما عرفتك ربيعاً مزهراً وشمساً مشرقةً، اعتدتُ على هذه الكلمة لأن عيني المحب أعمى فكنت هكذا أراك والعصابة على قلبي اتخذت مسكناً بغلافها السميك، حتى رحلت دون مبررات، فعرفت حينها أن شمسك لم تشرق في قلبي يوماً وربيعك كان خريفاً موحشاً إذ أصفرت أوراقي وماتت زهوري أمام عيني فنزع الغلاف من على القلب وبتُّ أراك خريفاً فقط، سيمضي الخريف وتأتي أمطار الشتاء لتغسل آثارك من على الفؤاد وحينها

الربيع لن يكون لك وسيزهر قلبي مرة أخرى دونك.

في وحدتي اعتكفتُ ورسمت الباب بقلمٍ ارتجف بين أناملي، أغلقته بعشر أقفال وأوصدته كي لا يتسرّب منه طيف ذكراك، اعتكفتُ وحدي، أتوب عن أخطاءك بحقّي، عن جرائم لم أرتكبها وآثام أرتكبها غيري، تطهّرتُ منك باكية شاكية، ومازال القلم بحوزتي يطالبني ألا أرسم مفتاحاً للأقفال، فالألم حينها سيولّد آلاماً أكبر لا تنتهي بعزلة وبابٍ موصد، آلام ترافقني العمر بأكمله تذكّرني بأنني رسمت المفتاح في الوقت الخاطئ. لن أكرر مشاهد الأمس والباب الموصد الذي رسمته بذهني لن أفتحه لكائن كان.

تمر بجانبي وكأنك الضحية الباكية تحت جلادها، أرمقك بنظرتي الشامخة كي أسألك سؤالاً لا جواب له (كيف استطعت كسر قلب كنت بداخله أميراً وانتزعته من سلامه؟) ألم يؤلمك حين كسرته عليك فتناثر الفؤاد شظايا بلورية مليئة بذكريات الخيال؟ كيف تملك في فاهك كلمات كثيرة عن العودة وكأنك لم تكن في ذات يوم جلاد قاسي متحجّر القلب.

ألاحقك متعبة، وسناءك أغشى بصري، ألهث خلفك كعقرب الساعة حتى أصل إليكَ منهكةً، وما إن استرح في أرضك حتّى تهربَ وكأنّك تلهو بي، دعني لثانية فقط أشمّ عبق عبيرك وأتمتّع بفتنة نسائمك اللطيفة، لكنك ابتعدتَ كثيراً وضياءك خبا، دنوتُ منك ففضّلت الهروب تسابق عقرب الثواني، وكلّما بانت لك خطواتي كنتّ تتعجّل دون أن تتعثّر ببحر أوجاعي، وبقيتُ كعقرب ساعة متوقّف أشيرُ إلى الأمام بينما تشيرُ أنتَ إلى الخلف، وانّتظرتكُ هناك حّتى تداويني لكنّ غزلتَ خيوط الفراق وحدك وتركّتني أراقبُ وقتاً لا ينتهي.

ماذا كان سيحصل لو منحتني صوتك كهدية رمزية تغلفها بعبق محبتك ورعايتك

أخبئها في ذكريات قلبي، استدعيه كلما طغى حنيني إليك وكلما زاد الاشتياق حده.

كنت فضولية حول أي درب سيسلكه قلبك لذلك وقفتُ لك في جميع الممرات أتأهب ذكراك الغنية بلحظاتنا الجميلة، اعتقدتُ حينها بأنه سيكون هناك ثمة

سبيل للقياك، لكن كل الدروب التي سلكتها كانت دروب وهمية ضللتني أكثر مما كنت عليه حين سعيت للبحث عنك.

قصوا جناحيها في ليلة عيدها، وقيدوها من جيدها بقيود من عاداتٍ وتقاليد، رسموا لها درب المآسي لتمشي هي خلفهم مغمضة العينين، وحجبوا عنها ما يجعلها أقوى.

وفي ليلة عيدها الثاني أعلنوا تضامنهم معها وأنّها سيّدتهم وملكة على الجميع قد توّجوها.

وفي ليلة عيدها الثالث أعلنت استقلالها ونزعت نيرهم الثقيل ورسمت البسمة في ديارها.

فأعلنوا في عيدها الرابع أن لا خير بمن أعلنت عصيانها.

فشكّلت الثورات ونفخت نار الحرب في وجوههم، وفي عيدها الخامس كان لها ما أرادت، وأعلنت للجميع بأنّها الأم والأخت والصديقة والحبيبة والابنة ولا يمضي العمر إلّا بها ولا تتساوى الحياة إلا بحنانها ولطافتها.

لم أعتقد للحظة واحد أنك قادر على فقدي، فلم تتمسك بي جيداً، بل لعبت بي كما يحلو لك وأنت تراهن أنك مستمسك جيداً بخيط رفيع ربطه بقلبي،

ولم ترني وأنا أفكه بسهولة وأعقده حول رصيف الذكريات، لم أنتبه للهوة العميقة التي هويت بداخلها فارتطم رأسي بشيء لا أعرفه ولم أستطع لمسه، كل ما عرفته بأنني بتُّ حرة من خيوطك العنكبوتية.

كبرت هي على افتعال الصدف.
لم تعد تقف لهم في الطرق الوعرة كي تلتقيهم بحجة الصدف والقدر المشترك.
أدركت أخيراً أن الصدف حين تتكرر يبهت لونها ويقل جمالها.
فرب صدفة من القدر خير من الف ميعاد.

كان قراره جائراً بحقّ كتاباتها، حين أمرها باعتزال الكتابة كي لا تكتب عنه ما لا يهواه قلبه، لقد كان حوباً كبيراً.
انتظرته أن يتراجع عن قرار اعتبرته سخيفاً، وحين طال ترقّبها على باب ذكوريته عادت إلى دفترها وشرعت تكتب لقلبها ما لا يرغبه، أراد أن تمجّده في كتاباتها، ولكنها ارتأت غير ذلك وكتبتْ آثامه المتهم بها والبريئة منها، نظر إلى ما كتبتْ وارتسمت البسمة على شفتيها، كانتْ ابتسامتها كفصل الربيع، كذلك رأى في إبداعها ربيعٍ لا يتوقف عن الإزهار. شمسُ صيف لا

تغيب، أعاد لها الدفتر معتذراً عن قراره بعد أن رفع لها القبعة احتراماً لإبداعها الفياض.

كثير من الحب، قليل من اليأس، حياة مفعمة بالراحة، خالية من الحسرات. هكذا وصلتُ إليك.

الحياة لا تقف على شيء فقدته، نحن من نقف ونوقف حياتنا وتفكيرنا لأتفه الأسباب، ونظن أن الحياة أضحت بلا قيمة وتحولت إلى سواد في سواد. لذلك كُن دائماً هادئاً لكل لحظة وموقف تمُر فيه، وذو حكمة في ردود أفعالك. ففي الهدوء والحكمة تأتي الدنيا كلها إليك.

تمهل في هروبك فالأرض كروية ستقذفك في دربي يوما ما، والقدر سيكون حليفي حينها، لن أهرب منك لأنني ذرفتك مع آخر دمعة لرثاء الحب ولفظتك من قلبي كما يلفظ البحر ضحاياه إلى شاطئ النسيان، سأسير

بجانبك افتتاناً وغروراً بقوتي وكبريائي وسأتجاهلك حين تعبر بجانبي وكأنك لم تكن في قلبي أبدا.

ألا ليتنا نعودُ يوماً إلى سيرتنا الأولى، ونعودُ إلى أرضٍ لهونا بها، فأيامي من بعدك عجاف فارقها الودق، ها هي أزهارك قد أينعتْ بينما أزهاري تمارس الذبول فريضة بعد كل مأتمٍ، أرجوك تعال إلى أرضِ الكرام واترك الخنوع والمهانة، لأن أرضي لا ترتضي الذلّ لها سكناً، فهلّا سكبتَ على جراحي عبير الحب كي أُبعث من جديد، وهلّا اسمّدنّت أرضي وغيّرت خرائط الحبّ لأجلي.

من النظرة الأولى أحببتك، حينها خفق القلب بشدة وهمس باسمك، علمتني الغرام وعلمتك الهيام، منحتني الحنان والأمان، منحتك أروع الاهتمام والوفاء، مازلت أغلى أحلامي فالدنيا ازدادت جمالاً بوجودك وفي عيني أنت وحدك النور والضياء.

أصبحتَ الغريب البعيد بعدَ أن أتيتني دخيلاً وطرقتَ باب قلبي طرقتين، كانت سيرتك الحسنة شفيعتك لديّ لتجعلكَ نعم المواطن الصالح في قلبي، ولكنّكَ رحلتَ في دجى الليلِ وخلّفتَ وراءك قلباً خالياً أجوفاً بعدَ أن كان ممتلئاَ بك، حاولتُ الاحتجاج على ما هشّمته في صميم قلبي، لكنّك كنتَ كالأبله ساكنٌ مطمئنٌ البال غير مبالٍ بالغضب الذي اعتراني وتقهقرتَ مسافات لا تحصى إلى الوراء، وتركتني أحصي آثامك في قلبي.

تجاهلتك هذه المرة للأبد لأنني أريد عيش حياة أفضل خالية من معارك ساحقة، فقلبي لا يستحق مني هذا الجهد وهذا العناء لأواصل كليلة التفكير بك فأجهد عقلي أكثر وأكثر لذلك أردت عيش حياة افضل من دونك لأسعد ما بقي من عمري.

كلؤلؤة في قلب سمكة، لا يقدّرها صياد، يبعها بثمنٍ بخس، يشتريها رجلٌ زاهد في الحياة فيرميها لطفل في الشارع يلعبُ، يأخذها الطفل ولكن ليس لديه حطبٌ ليشويها، فيلقيها لقطة تلعب مع جارتها تتشاجران عليها وتنزلقُ

اللؤلؤة إلى رصيفٍ غير آبهٍ بها.

أتعرف ما هو الحزن الحقيقي حين يدق القلب دقات متتالية متعبة وكأنه يقول لي أرهقتني ولم تداوني ومع ذلك اضطر لأداء مهمتي في العيش وكأن لا شيء يحدث، وكأن ضجيج الذاكرة توقف عن الثوران، في حين أود الهروب من الحياة.

تاهت المفردات مني حين التقيتك، تمزق قاموس الكلمات حين التقت العيون، وقفت حائرة أبحث في جمال اللغة عن حرف يسعفني لأنطق به ولكنها كعادتها في كل مرة أراك بها تتمرد علي الكلمات فتهرب وأبتسم لك ثم أهرب بعيداً عنك باحثة عنها لعلي اجتمع بها قبل صدفة تجمعني بك فأحدثك دونما خجل.

كان قرار رحيله صادماً بالنسّبة لي، ومن وقتها لم أعد الطفلة التي كانت، كبرتُ مئة عام من القهر، نسيتُ كيف يكون الفرح لأمثالي، غادرني دون

وداعٍ وكأنّه راحل لحفلةٍ ما، تركني بذكرياتٍ قضّت مواجعي، تألمتُ كثيراً حتى شفيتُ منه، تعلّمت من الحياة تجربة قاسية لأتجنّب في المستقبل خيبات أخرى، وبعد سنوات غربتي عن نفسي بتُّ أراه شخصاً لا ملامح له، وكأنّه شخصيّة هزليّة خرجت من مسرحيّة لا جمهور لها سواي، وهو يعدّني البطلة الخارقة التي خسرها. بتّ انعزاليّة أكثر من اللازم، وكأن البشر جميعهم داءٌ لا دواء فيهم، بفضلك أعدتُ ترتيب أموري وجعلتُ أناي في مقدّمة الأشياء، ومع ذلك يفرحني القول كما يحزنني بأنّ طرقاتنا باتت بعيدة كلّ البعد عن قلبينا.

لن أعود لأحارب في معركة لا نهاية لها.
لن أعود لأنطفئ مرة أخرى.
لن أعود لأماكن تستنزفني وتسرق نضارة القلب.
لن أعود لأنني فقدت خط العودة وبدت الدروب متشابهة.
لن أعود كي لا اهزم ممن كان نديماً لي ذات أمسية شعرية.
لن أعود كي لا أفقد طمأنينتي
باختصار لن أعود.

جلس العقل على طاولة المفاوضات ومقابله جلس القلب، جلسا يتباحثان معاً ويعقدا اتفاقية تخصّنا معاً، كان قرارهما مؤلماً في حقّي، إذ قررا نفيك من دهاليز ذاكرتي وإسقاطكَ في جبّ الحكايات الخرافيّة. لأوّل مرّة يتفقا وأول مرّة أكون خارج الموضوع فأصمت وأعطيهما الحقّ الكامل في القصاص منك وإقصائك من حياتي.

أسافر كل يوم إلى مدينتك الغريبة، الملم حقائب الذكريات على عجل وأتجرع كأس الأمل بسرعة، وأهرع إلى طائرة الخيال، أتمّسك بجناحيها وقلبي يخشى السقوط فيتشبث بذكراك كي لا يهوى غيرك، وابقى هناك عالقة على جناحها أخشى السقوط على رأسي فأفقد ذكراك الأخيرة.

زارني أرقٌ لعين بعد منتصف ليل الصّبابة، أقسم أغلظ الأيمان أن يكون لي نعم الصديق، كان ممتلئاً بوفاءٍ لم أعهده فيك، طالت زيارته في مخدعي، فألبسني رداء الجوى، ولم يرأف لعبراتٍ انسكبت شيّقة تنتحب لوعةً وسهاداً، أخبرته أن مكوثه قد طال وقد اشتاقت جفناي للكرى، ووجهي رغب باستعادة

رونقه ونضارته، ولكنه لم يهتم لكل ما قيل له وواصل المكوث ليالٍ نزقة تحمل سُهاد الحنين في جعبتها.

خبأت لك من الورد أحلاه وفي كل وردة خبأت لك القلب الصغير وقليل من الحنين والكثير من الذكريات وعناقاً يختصر المسافات.

نظر إليها بغضب بعد أن أفرغ ما في جعبته من كلام، همست له (اخترتك وطن أختبئ بين يديه، لم أشأ أن تكون بلد حرب اهرب منه، كن جنة أسعد بها ولا تكن جحيما يشقيني، لا أريدك سحب سوداء تحمل غضباً، أردتك سحابة صيف تحمل المطر وأنا الأرض المشتاقة لقطرة ماء منك، أستغيث بك فأنجدني وأمطر علي من الحب كثير من الهيام، فالوجدُ صنع بي مالم يصنعه غيره من الأسقام).

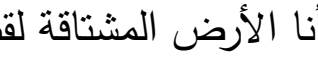

لم أغلق القلب الذي سكنته يوماً بعد هجرانك له، بل عرضته على الملأ ودعوت الجميع أن يدخلوه كي يمسحوا آثارك من المكان كله، لعلي في

زحمة هذه الضوضاء أنساك أو ربما أتناساك لدقيقة أو لثانية.

وكان كلما طلب نجمة صغيرة أسارع في إحضار القمر، لم أكن أعلم أنه يرغب بنجمة واحدة، فقط نجمة صغيرة ولطيفة تضيء حياته للأبد.

من يقرر الهروب عنك والهجران سيهرب دون سبب يدفعه لذلك، يتبخر كفقاعة صابون بدون النطق بكلمة واحدة، لكن من يأتي إليك وفي عينيه لمعة الانكسار، يشرح أسبابه والضغوطات التي أوصلته إلى هكذا قرار يبقى واقفاً منتظراً منك التمسك به، تخبره باستحالة العيش دونه، تشاجروا وعاتبوا بعض، كل ذلك يبقى في ساحة حبكما أشجار من العشق تروى، لا تخافوا من كل ذلك إلا حين يخيم الصمت على علاقتكما، حينها أعرفوا أن كل شيء قد انتهى.

يظنون عقلي فارغاً وكأنّ به لوثة، أنظر إليهم هادئاً حليماً على قبح ألسنتهم بالسوء، حاولوا بشتّى الوسائل تقريعي بلومٍ أغشى صدورهم، فتعجّبوا من

حالي على صمودي وكأنهم أطيافاً لا وجود لها، أدركوا في نهاية الأمر ما يفعله كلّ كتابٍ أقرأه، كنتُ أعيش في عالمي وهم متخبّطون بعشوائية في عالم فوضوي.

مازال الليل يسرق ساعات النوم ويستبدلها بليالي الأرق، يخبئ الهدوء تحت جناحيه ويهديني عوضاً عنها أكواماً من ليالي الحنين، يعطيني السهاد ويأخذ راحتي ويتركني في مهبّ الرياح أتقلّب ليلاً ونهاراً دون أن يرأف بي فيسعفني بأرق يطول ويمتد فلا يغمض لي جفن.

لن أنسى تلك الليالي التي جعلتني فيها أميرتك والبستني رداء المحبة وصنعت لي تاجاً من الوفاء، ولكن تلك الليالي غابت معك ولم يعد الحنين يجلبها لي كذكريات سعيدة أتوسدها قبل النوم.
ما علق في ذاكرتي فقط كلمات الوداع، لمعة عيناك الأخيرة في لحظة وداع حاسمة.

أحبته لأنه الوحيد القادر على سلب نفسها منها بإرادتها، دعاها لمأدبة الحب حيث هناك في تلك الأمسية عشقت نفسها كما هو عشقها وبالطريقة التي تليق بها. شجعها على تقبل ذاتها وكل جميل فيها، أحب عيوبها قبل حسناتها، زودها بالثقة بنفسها وبنفسه، ساعدها لتكون أفضل نُسخة من نفسها ومن أشباهها الأربعين، في تلك الليلة القمرية نهل من بحر عينيها فعشق قلبها قبل روحها.

وإنني أستطيع أن أدير ظهري بسرور لكل من أراد فعل ذلك، أستطيع أن أسابقه إلى الباب فأفتحه له حتى يخرج وأوصده جيداً كي لا يفكر بالعودة مرة أخرى، أستطيع أن أصمّ آذاني عن توسلاته وأمضي فأزيحه من طريقي وأركله كحجر عثرة كي لا يسقطني فألتفت إليه فجأة دون انتباه وهذا ما يغيظني فعلاً، وأمضي في طريقي وكأنك لم تكن فيه يوماً ما.

في ليلة غائمة رسمتْ على لوحتها خريطة الأوطان فألغت الحدود ومحت نيران البنادق، رسمتْ أملاً جميلاً ونثرت الفراشات في كلّ مكان رسمتْ الحبّ يعانقها دون قيود، أطالت النظر في لوحتها وارتسمتْ على شفتيها

ابتسامة النصر، ونامت بجانبها تعانقها، فهبّتْ نسّمة صفراء وحملتها إلى اللوحة، ركضت بين أوطانها كعاشقة متيّمة، نزل الحبيب من برجه العاجي وعانقها في وطنٍ لا حدود له، ضمّها إليه في وطنٍ آخر لا يعرف الأصفاد.

مررت بجانبك عن قصد وكأنك غبار في الهواء لا يرى، وبكل فخر تجاوزتك كما نتجاوز المحن وكما أعبر الشارع كل يوم عبرتك راضية مقتنعة بالقدر غير آبهة لمصابك، عبرتك بنفس تتوق للأفضل وتأمل بحياة لا تشبهك وبعمر لست فيه وحياة خالية من أشباهك.

من ضمن كل عابري السبيل الذين صادفناهم، كانوا وحدهم منارة لظلامنا، لم تكن علاقتنا بهم قوية ولم نكن نعرف بعضنا جيداً ونادراً ما كنا نتكلم، لكنهم استطاعوا ببساطتهم وعفويتهم كسب قلوبنا. كلامهم كفيل بجبر خواطرنا ورسم الضحكة على وجوهنا، هم النور الذي يضيء وسط العتمة. هم الأمل في وسط صحراء اليأس.

لم يتبق مني سوى ليل حالك الظلمة ونجمة خافتة مريضة تحتضر وحدتها، وقمر بعيد يأبى الاقتراب يعزف لحناً لمواعيد كثيرة فاتت ولم يحن اللقاء، لعبرات انسكبت معبرة عن شوق دفن في الصدور وارتسمت على الوجه الف ابتسامة تحكي مئات الحكايات.

يقتلني العيد آلاف المرات حين يقبل علي وأنت بقربها، تؤلمني السماء حين تبكي مطراً مدراراً وأنت بصحبتها، يشتد بكاءها منتصف الليل فتراقصها حباً وولهاً، يعذبني الليل ويهاجمني، أبكيك حنيناً وشوقاً وأتمناك معي، لكني وحدي أبقى وأنت معها.

تاه هو في الحلول البديلة، كانت جعبته مليئة بهذه الحلول، ولكن الأمل الوحيد الذي يرجوه لم يكن بين يديه، للأسف هو كان يريد غير ما كانت يداه تحوي، عاد بفكره يتأمّل يداه الخاويتان بحلٍّ لا يفكّ عقدة مشكلتها بل يحكمها إحكاماً فلا تنفرج بعدها، من يلمحه من بعيد يغبطه على ما تملك يداه، ومن يقترب منه يدرك بأن ما يحمله واهياً كخيط العنكبوت لا يحلُّ عقداً، بل

يزدها عقداً متشابكة لا تنحلُّ أبداً.

هكذا انتهت حكايتنا، بصمت أبكم منه وبعينين تلتمعان من طرفي، ربح بائع السجائر والمناديل وخسر بائع العطر، خسرت أنا في كسر صمته وخسر هو في كسر عنادي، كلانا خسرنا ولم نربح شيئا ومع ذلك تباهينا أمام العامة بأن كل واحد قد ربح نفسه وفي الحقيقة خسرناها ونحن نندب الهوى.

لا تقل وداعا وتمضي هكذا، تبتعد أميالاً دون الالتفات إلى ورائك إذ خلفت غيوما تعج بدموع منكسرة، وقلب يتبعك في متاهات صعبة الوصول، روح هشّة تنزف خيبات قاتلة، لا تقل وداعاً وتمضي فتغلق جميع الأبواب بيننا، اترك باباً واحداً مواراً لعلك تحتاجه غداً.

مهما كثر من حولك المعجبين يبقى هناك من يخفق قلبك لذكره وعطره، مهما كثرت الأرقام في هاتفك يبقى هناك رقم مميز باسم مميز وبنغمة مميزة، مهما كثر من حولك الزائرون يبقى هناك شخص واحد حضوره يطغى على الجميع.

لكنها كانت حين تنظر إلى المرآة شيء بروحها يتغيّر ويتبدّل، كانت تشعر بقوّة خفية حين تبتسم لنفسها تلك الابتسامة النقيّة، إنها هي كما أرادت أن تكون دوماً مثالاً للقوّة، فرسمت جسوراً من أملٍ تهرول عليها دون أن تقع وتمكّنت من لفظ الدمع من حياتها، وفي كل مرّة تقف أمام مرآتها كانت تُسكتْ ضعفها وتردد بأنها الأقوى رغم الخطوب التي ألمّت بها، يكفيها هذا الشعور لتنهض من كبوة الألم لتطير في ميدان عزتها ولتنفض عنها ركام الخيبات.

الحرف ينطق من بحر عينيك لغته ليكمل ثمانية وعشرون حرفاً تطوف حول جسدك، وتبدأ لغات عشق لا يفهمها أحد سواي، لأجلك أتقنت العوم في بحر الاستكانة ليستكين فؤادي وينام مطمئناً غارقاً في هيام ولهك.

تفتحت ورود الربيع في رياض عمري لأجلك ولكنك مازلت بعيداً كبعد أحلامي عن تحقيقها، جاءت الأمطار تغسل عبراتي فخبأت وجهي كي تبقى شاهدة على حنيني وأشواقي إليك.

غابت شمس أيامي لعلها تأتي بك في يوم صيفي فيه الأمل كما النور يتدفق، وها هي سنوات عمري تنقضي وأنت ما زلت بعيداً كبعد القمر عن أرضنا.

يظنّون أنّ العاهة قد تلبّسته وما يدرون بأنها لا تتلبّس إلا ذو عقلٍ منّفتح، استطاع أن يسير على قدميه بعقله الممتلئ بكتبٍ وحكايات وأساطير، فرسم لنفسه حلماً أكبر من أحلامهم، أمّا غيره ممّا يتندّر عليه فهم

من بهم العاهة لالتصاقهم الشديد بهواتف لا تجلب لهم أيّة فائدة ويبقى عقلهم أسير هواتفهم النقّالة فلا يرون أبعد من أنفهم. فمن الرابح يا ترى؟

متعبة هي، فهلا انتشلتها من قاع الألم وأخذتها جولة هانئة في أحضانك، قصصت عليها شيئا من الوصب والوله، لعلها تنام عمراً تغزل فيه حكاية متيمة بك، متعبة جداً تريد كتفك لتستريح عليه، فلماذا وهبتها فوق ألمها ألما مضاعفا وأسقيتها كأس الحنظل لتهرب منها وتسكتها كي لا تشكو وجعها، ارحمها يا صديقي، فهي أنثى بحاجة لكأس من حنان فيه من الشغف والغرام الكثير الكثير، لا تتركها لذنب لا طاقة لها به.

أعبر الليالي المظلمة ملتحفا بذكراك، الف يداي الباردتان في قفازي الحنين، أعود خائبة وانتظر ليلة ثم ليلة دون أن تسعفني بك، التحف ذكراك مجدداً فأستشعر دفء نظراتك الغائبة عن ساحتي وأمضي باحثة عنك بين ليال مضت وأخرى ستأتي دونك، أعود خائبة ولكنني لست بيائسة، أجدد

ذكرياتك في قلبي لأعود للبحث عنك في كل الليالي التي وعدتني أن تعود بها ولم تأتِ.

ومن قال أن الاشتياق كتب للعشّاق، الكثير منا يمارس الاشتياق كل مساء إذ يأخذنا الحنين لذكريات الطفولة، لأماكن الصبا، لحروف من كانوا يوماً بلسماً لجروحنا، وأحياناً نشتاق لبعض المشاعر والأحاسيس.

إلى البعيد سافرتُ كي لا تلتقي دروبنا، هزمتُ الحبّ الذي جمعنا يوماً وتحت ستار الليل تعاهدنا حينها أن نبقى خليلين للأبد، ولكن شاءت الصدف أن تبعدك عن ساحة الغرام لأجد ذاتي على رقعة شطرنج تلعبُ بها بدهاء، فهربتُ إلى عزلة اعتكفتها ومحراب دعوتُ بها أن يمحيك من حياتي

كذنبٍ يحمّلني وزر حبّي البريء. فارحم عزلتي واتركني لها ولا تقترب من جحيمي كي لا أحرقكَ بناري.

تركتها للقدر هذه المرة فهو يتجاهل ما يتمناه قلبي ويسعى بي إلى طريق الخير، فاستكن أيها القلب المتعب واثبت فإن كان الهوى من نصيبك سيأتيك على طبق من ذهب وإن لم يكن كذلك فدعه يذهب وتمنى له الخير وادع لنفسك بخير منه واصبر على ما أصابك.

ومنذ أن قذف الله حبك في قلبي أقسمت ذات اليمين أن أرعى بمن لاذ بي واستعان، فلا تسألني بعد الآن "لم أحببتني؟" حتى وإن كنت شوكاً بين أناملي لحضنتك بألم يدمي أطرافي، لتشبثتُ بك كتشبث الصغير بثوب

أمه حين مقابلة الغرباء، فأستودع الله يا صغيري حبك في قلبي وأن لا يريني فيه بأساً أكرهه.

اشتاقك، لكنك كالماضي لن تعود.

ضاع عمري وحبك في قلبي مكتو..

غابت ليالي وأحلامي بك لم تغب.

تناسيت الشموخ والكبرياء لأجل حبك الموعود.

محوت العناد من صفحات حياتي كي لا يجبرني على نسيان عشقك المعهود.

كان يتأمّلني لدقائق بدت ساعات، ثم اقترب مني وسألني: من أنتِ؟

_من أنا؟

أنا يا سيدي خليط مكوّن من ماضٍ وحاضر ومستقبل، طفلة صغيرة تركض في الحواري الضيّقة وتهمس للطيور لتحملها وتطير بها إلى سماءٍ كانت حلمها يوماً، إلى نجمة تسرقها من صفحتها لتخبّئها تحت وسادتها فتنعم بضوء لا يغادر غرفتها. أنا مراهقة أبحثُ عن حبيب لا يخون ولا يغب، أفتّش عن صديق صادق لا يبتعد، أنعزل لأبكي يداي الخاويتين من حبٍّ لا أجده.

أنا يا سيدي فتاة تبحث عن الأمل وتسعى لرسم السعادة على وجوه الكثيرين ثم تنخرطُ لعالمها وترسم لها طريقاً ربما لا تعبره. أنا امرأة غيّرها الزمان، امرأة لم تحظَ بنجمة واحدة وانزلقَ الحبّ من أطراف أصابعها وغاب الأمل عنها ولم تعثر على طريق.

أخاف أن يجرفني الشوق إليك يوماً فلا أراك..

اخشى فقدان وجودك ساعة الرحيل فلا أراك..

أخاف اشتهاء نظراتك كل مساء فلا أراك...

أخشى الحنين إليك كل ليلة صبابة فلا أراك...

توقّفت عجلة الزمن بانتظاري لك، وشعرتُ بأنّ عقارب تلك الساعة الهرمة قد شاخت فما عاد بمقدورها المضي قدماً، طال انتظاري وحين أدركتُ بأنّك لن تأتي مضيتُ في سبيلي أحثّ الخطا بضياعٍ وألم، وكانت الساعة حينها قد عادت فتيّة تركض بسرعة إلى مالا نهاية. وكأنّ الوقت الذي مضى ضاع كلّه في انتظار وهمٍ لن يأتي. وهم اسمه أنت.

لم يغادرك قلبي بل بقي ينتظرك عند محطة وداعنا، يدرك بأن ميعادك لن يتأخر وستأتي يوماً لتخبره بشوق كاد يفتكك ولكنك تأخرت كثيرا وغدت المحطة شبحاً كبيراً يجثم على صدري وما عدت أنت تزورني وما عاد قلبي ينتظرك.

إن هددك بفراق طويل أحزمي أمتعتك وغادري قبله.

إن هددك بهجر مرير اهجريه أنت ولا تلتفتي إلى الماضي الحزين.

إن هددك بدموع على العيون ستكون بإمكانك اقتلاع عينيك ورميها أمامه إن سالت على خدك دمعة واحدة، أخبريه انك أنثى لا تهدد، أخبريه إن كان هو السيد فأنت ملكة على عرشه ستتوجين.

لا تغادر ولا تهدد بفراق أبدي، فحجم حنينك فاق حجم حنين العالم بأكمله، لا تغمض عينيك على شوقك وهيامك ومد يداً لصفحة ناصعة البيضاء ولنكتب فيها ونبدع فتون الحب وغرامه، لا ترحل لأن قلبك مازال هنا يعانق فؤاداً خالياً من كل شيء إلا من حبه فهو به ممتلئ.

رأته فارساً يختال بين الفرسان، رماها بسهم الحب وغرسه في فؤادها ففتح له باب القلب ليدخله وقتما يشاء، وجدها هناك في حدائق الحياة تعيش هادئة وديعة، ساكنة مطمئنة، ودّت لو يضمها فتستكين الروح أكثر، ولكن هيهات أن يفعل، خذلها فكسرها، أغلقت بعده الأبواب، وختمتها بالجراحات، فما بين الفتح والسكون والضم لم تلقَ سوى الكسر.

ثم نظرت إليه بدموع أغشت مقلتيها وصاحت "لا تعبث بي، اتركني لخرابي، فما أقدر مني على إصلاح ما أفسدته في قلبي أنت والآخرين"

احملني بين يديك فراشة لا تكسرها مسافة أو بعد، خذني بعيداً عن ضوء شمعة وهمية تكاد تحرقني، لا تضعني في مكان بحجة الأمان، فحضنك الأمان وملاذك الدفء والحنان، احملني بعيداً عنهم وفي قلبك ابني لي بيتاً لم يبنَ له مثيل، ازرع حولي الورود فقد تعبت من صحارى القلوب

وزين راحتي يديك باللون الثامن من الوان الطيف ليكون حصنك الأعجوبة الثامنة.

تعال نفترق. ونعشق من جديد. تهاتفني ساعات لا تنتهي، تحدثني تفاصيل يومك بالثانية والدقيقة، تخبرني عن جارتك المراهقة التي تتربص بك كل حين، تعال نفترق ونثمل الحب من جديد، أفتعل المشاكل فتضمني حناناً، ابتعد تقترب، أثرثر تصغي، اصرخ تصمت، تعال نفترق لنشتاق ونحن ونبكي ويهرول كل منا إلى بعضه الآخر، تعال نفترق لترسم على باب بيتي قلب ينبض فيه الحب من جديد، لتمنحني وعوداً بعشق لذيذ، أما آن لنا أن نفترق لنعش الحب كما يليق بنا؟

هل ترغب بصفعي مرّة أخرى كما صفعتني الحياة قبلك؟ كم صفعة كانت ستنال مني إن لم أستيقظ؟ ولكن صفعتك كانت الأقسى من بينهنّ جميعاً، لم أعرف مكان أهرب إليه من قسوتك لأنني في جميع الأحوال كنتُ

دائمة الهرب إليك. والآن أنت جلّادي ومنقذي، ملمس يديك الناعمة مازالت تتأرجح على وجنتيّ وعطر أنفاسك مازال يلاحقني في ليل الصبابة، أتذكر يوم قلتَ لي حين مرّ جوارنا بائع السجائر " أخشى أن يأتي اليوم الذي يربح فيه بائع السجائر وبائع المناديل الورقية ويخسر بائع الورد وبائع العطر" لم أفهم دمعتك التي ذرفتها حيناً، والآن وبعد أن أحدثت صفعتك الآثمة في قلبي دويّ هائلٍ حينها أتلفتُ جميع مناديل العلبة وعرفتُ بأنُ اللعبة قد انتهت وخسرنا معاً. كيف أخبر القاضي عنك والذي سيهزأ بجرحي ويخبرني بأن بعض الآثام لا قصاص لها في محكمة الدنيا؟ لن يرى تنكيلك بجراح قلبي، فجروح القلب لا تُرى ولا تبرأ. كيف أسامحك وأنت لم تقتنع بعد بأنك جرمتَ في حقّ قلبي؟ وبأن جرحينا متساويين، بالنسبة لك ربح بائع السجائر وبالنسبة لي ربح بائع المناديل، وخسرنا في قدرٍ لم يجمعنا كما خسر بائع الورد الذي راهن بائع العطر علينا أننا سنبقى إلى الأبد زبونين دائمين لهما. هكذا ظنّا قبل أن تقتلع صفعتك ورود الحياة في قلبي.

لم أعتقد أبداً أنني أنا المرأة العصية عليك كنت أن أستسلم لك ببساطة هكذا.. لا أعرف كيف بدأ الأمر، إذ تنازلت لك عن قلبي ذات مرة،

هذا ما أذكره ثم تنازلت لك حياتي بأكملها وانتهت التنازلات باستسلامي وبخضوعي لبئر حبك.

ومع أنني امتلك يدين اثنتين لأعانقك ولكنني لا أقابل إلا الفراغ، أحاول أن أصغي السمع فلا يصل لأذني سوى حفيف أشجار الخريف، نظرات عيناي امتدت إلى آفاق شاسعة ولم تظهر. أدركتُ أنني سأبقى أسيرة لفراغ لا يسعك ولأحلامٍ هربتَ منها، أرغبُ بساعةٍ تجمعنا، ويتوقف عقاربها عن الركض فأعانقك مائة عناق وأحادثك ألف حديث، وأمسح هموم الزمن من مقلتيك. فتعال قبل الوداع الأخير كي نمضي معاً. ابتعدتَ عن قلبي أميالا دون الالتفات إلى ورائك حيث خلفت غيوماً تعجّ بدموعٍ خائبة، وقلبي الذي يتبعك إلى متاهات لا تصلني بك. روحي الهشّة يا صديقي تنزف خيبات قاتلة لا تقل وداعاً وتمضي فتغلق جميع الأبواب بيننا، اترك لي باباً واحداً مواراً فربّما نحتاجه غدا.

بين كلماتك يتوقف الزمن يستمع لهمسك، يتعلم كيف تمنح السعادة بلا حدود، يراك فيهبنا أوقاتاً كثيرة مليئة بالحب والهيام، فتعود لتقدم لي أفضل ما لديك بابتسامة لطيفة والزمن يقف لكلينا.

سأزرع الأرض ياسميناً، أرويها من فيض حبي، فتنمو وتكبر حباً وعشقاً، فحين تمر من تحتها تراها تهمس بحروف اسمك وتسقيك من شهد حبي.

لم يعد للخوف مكاناً في قلبي، كان خوفي من الفراق دائم وافترقنا وانتهى الخوف، حتى ساعات القلق اندثرت وحلّت محلها طمأنينة وسلام، كان القلق يأكل قلبي وأنا أترقب هذه الساعة ولكنها أتت محملة بأطنان من الهدوء جعلني استسلم لكل شيء، لعبرات كانت متجمعة وانهمرت دفعة واحدة.

وتسألني هل تحبينني؟ أغمض عيني، فأراك الأفضل في فؤادي والوحيد في حياتي، بعدك عني سراب أوهام وقربك مني دفئ وحنان، نبض قلبي ومالكه، نور دربي في الحياة ونعيمها، فتحت عيني لأجدك قد رسمت لي على الشجرة قلباً وجاوبتني "أنت" حبك أروع شعور، وحدك أمل حياتي القادم"

أتسافر معي إلى البعيد؟ إلى خريطة تجمعنا، نلعب فيها ونمرح ونعبث بالحدود كما نشاء، إنه عيدك فأخبرني أين تريدنا أن نهرب؟ وأي مكان تختاره مقراً لنا، اسمح لي أن أقطف لك من النجوم أشدها بريقاً، ومن الأزهار أشدها تورداً، اسمح لي أن اختار لك جنة خلقت لأجلك ووحدك من سيصبح سيداً لقصرها، سأهديك خريطة صغيرة فيها شجرة واحدة نستريح تحت فيئها، لا وجود لحدود تجرنا إلى شوق وحنين ودمع في الليل الطويل،

أترضى بفؤادي سكناً لك... سأهديك عمري وما بعد العمر سنيناً لا تعد ولا تحصى.

لا تطيل الهجر والبعد، فالفراق لم يكتب لأمثالنا، نحن من رسمنا الأمل على صفحات الحب ولوناه بالفتون وصبوة العشق، أيعقل أن نغيب عن بعضنا ويغيب اللون عن لوحاتنا وكأنها لم تلون من قبل؟ فالهجر ليس من عادات المحب ولا العاشق، كفاك غياباً فقد تعب قلبي وبدأ عقلي بالاحتضار وهو يرسم كل دقيقة أحداثا تعانقنا لن تأتينا قريباً، وربما تباغتنا المنية قبل اللقاء.

في عالمنا ثلاثة أشخاص نصادفهم دائما في كل حين، منهم من يغدق علينا بمشاعره ومنهم من يقتر فيها، ومنهم من يتركها تنساب على مهل.

لنبدأ بالنوع الأول: وهو إنسان يعطيك مشاعره جميعها دفعة واحدة ثم تراه يخبو إلى أن ينطفئ، سيكون لزاماً عليه إعطاءك مشاعره المكررة مرة أخرى لأن مشاعره نفدت من أول ساعة لقاء بينكم..

النوع الثاني إنسان يتأمل حبك وبعدها يعطيك مشاعره على دفعات وفي كل مرة يعطيك إياها بحلة جديدة، يختبر حبك له فيعطيك أضعاف ما تعطيه، يحتفظ بالكثير من المشاعر لأجلك كي يبقها في خزانة الحب تصدح باسميكما.

النوع الثالث إنسان بخيل في مشاعره يقتر فيها كثيراً ويعطيك إياها قطرة تلو القطرة، تطلبها منه كثيراً، لكن هيهات أن يعطيك ما تطلب.

فاحذر من الأول لأن مشاعره حين تنفد عليك سيرحل إلى غيرك ليعطه ما أعطاك إياه، واحذر الثالث فلا حاجة لك به لأنه مهما حدث لن تحصد منه إلا الخيبات والألم واقترب من الثاني لأن مشاعره لا تنتهي، ففي جعبته المزيد ليقدمه لك.

لا تلم الحب الذي عندي، فما عندي أخف مما عندك وما عندك أثقل مما لدي، لندع العمر يمضي بيننا وبين صفحاته نرمي حمولة الهوى هنيهة

هنيهة فيتساقط بين أرواحنا ويتبعنا في أزقة مشاعرنا، فيعود إلينا كطفل تواق للحنان، يتشبث بنا، خائف من رحيلنا دونه إلى ساحة كبيرة مليئة بكل المشاعر عداه، فلنأخذه معنا وليكبر بيننا ولا ندع يده تُسرق من يدنا.

لا أحد يغوص في أعماق قلبك سواي، ولا أحد يهمه أمرك سواي، فكن بخير لقلب أرادك واقعاً كما أردته حقيقة، كن بخير لقلب يأمل أن تهرب من الأحلام وتأتيه، أن ترفض كونك بطلا في الحكايات وتأتي لتكمل دوراً رئيساً في حياة لن تكون مستحيلة.

بعد أن استكان القلب في محرابك وهام في غرام أيّامك، وبعد أن أصبحتَ الخلّ الودود ووضعتَ على حطام أحلامي ورود الوجدِ، رفعتني إلى السماء وتركتني أهوى إلى أرضٍ جليديّة ليس لها عنوان. أفقتُ من سباتي وصوت ارتطامي العنيف بالخيبة يؤلم فؤادي، روعة جنّتك الخضراء مازلت وضّاءة في الأعالي تعلنُ عن حاجتها لأنثى لا تجيد العصيان، أنظر إلى

نديمي وهو يتسامر وأخرى بعد أن تم إبعادي عنها قسراً. واليوم وقد بانَ كلّ شيء أدركتُ بأنّك لم تستحقّني يوماً.

وإن سألتني ألف مرة بعد الستين ألف من أكون؟ سأقول لك ككل مرة تعشقني فيها، أنا من ضلعك خلقت وإلى قلبك أنتمي وبين حناياك أعيش.

لا دخان يخرج مني، كيف أخبرك إني أحترق، لا دموع تنسكب من مقلتي كيف أبرهن لك أنهما ابيضتا من كثرة البكاء، مازلت واقفة ولكن كيف أخبرك أني مع الوقت أميل تلقائياً ومع مرور الآلام ستراني في الأرض لا أستطيع الاتكاء، كيف أخبرك أنني احتضر حين ذهبت أخذتَ بيدك اليمنى الهواء وفي اليد الأخرى قلبي. كيف أخبرك أنني أعيش في واد به من العذاب مالا يحتمل، ومازلت أحاول إلى الآن الوقوف والابتسامة في وجهك كي لا تتوه بدورك ولا أراك.

نفدت طاقتي ونضبت وأنا أركض خلفك باحثة عنك في كل أماكن الأصحاب، حتى نفدت ولم يعد هناك طاقة لأبتسم في وجهك، فغدوتُ أشبه الأموات وأنت جعلتها حجة لتهرب من جديد حتى نفدت طاقتك أنت أيضاً وجلست بجواري نتأمل الزقاق العتيق وحكايات الغرام القديمة.

وحين جرحتك ولم أدرِ بذلك، لمحت دموعك تتدفق من عيني، وانكسر القلب المتيم بك، فاعذرني على ما تبقى لك من ودّ واعذر قلبي على ما يحمله من آهات الحب ولوعته، ستظن أن الأمر أثقل من أن يحل باعتذار، ولكن ما عسى أن يفعل المقيّد بأغلال هواك سوى اعتذار طفيف يعيد العمر إلى رونق الحب ولهفة بداياته.

لن أرحل عنك ولن أهجرك، سأبقى بجانبك عهداً قطعته على ذاتي بحلو الحياة ومرها، أمسك بطرف الخيط الذي يجمعنا وأطلب منك أن تمسك الطرف الآخر، لنتفق ألا نفلته، نتمسك فيه ونشدّ عليه بكلنا يدينا، أريد لحبنا أبدية خالدة، سنظل نمنح لبعضنا فرصة جديدة وان استهلكنا جميع الفرص سنخلق فرصا جديدة، وحين نصل إلى درب مغلق سنهدمه بحبنا ونعيده من البداية.

مشيت وحيدة ألملم جراحي، أحتضن أحلامي، أضم خيباتي أطوي صفحاتي الماضية، مضيت دون رؤية أيديهم ترافقني ولا عيونهم تشيعني

دونهم رحلت إلى عالم أنقى من عالمهم، عالم أصرخ فيه عالياً لعلي أجتث نفاقهم من جذور قلبي، لعلي أستفيق على وقع أقدامهم وقد رحلوا من قلبي إلى الأبد.

علمتني رقة الورد ودلاله، أخبرتني أن عطر الزهور يسبقني أينما حللتُ وارتحلت، رويتَ لي قصصاً كثيرة عن جمال الورد وبهجته، زرعتَ في دربي الآلاف منها، لكنك لم تقل لي ماذا يوجد في طياته؟ لمَ لم تخبرني عن أشواكه المثيرة؟ أدركت بعدها أنني امرأة من ورد ولها شوك إن اقترب مني أحدهم جرحت قلبه، عرفت لماذا تشبهني دوماً بالورد الرقيق.

يؤلمني غيابك عني وابتعادك في سبيل الحصول على الراحة، تحزنني الخيبات القاتلة حين آتي إليك بقلب عاشقة قد ذبحها الشوق وأجد قلبك مليء ببرود الصيف وجليد الشتاء، لم تبحث عني ولم تفتش زوايا الكتب بحثاً عن حرف قد كتبته لك، أول مرة لا يعنيك بتاتاً إن وجدتني أم لا.

كنت أظن أنني مازلت حبيسة دائرتك نلهو كما الصغار، أخشى الهروب منها فيواجهني عالم لا أرغبه فابق أماني كما عهدتك.

هل يحق لي أن أحلم بالمستحيل؟ أيحق لي أن أسافر إليك بأحلامي؟
أيحق لي أن أبوح للدروب المنسية بمشاعري واقرأ عليها أشعاري؟
أيحق لي أن أستبيح قدسية حبك؟ فأناديك حبيبي، أيحق لي أن أتوه
في سراديب عشقك؟ قل لي يا من كنت هواي: ماذا يحق لي؟ أأكتبُ إليك
بمداد دمي لعلّ الألم يناديك؟؟

أخبرتك بنار الوجد تحرق أضلعي، فهربتَ وغربتَ عن حياتي كشمسٍ
لم تعد تبالي بالشروق، هزمتَ حبي وهزمتني ورسمت درباً بعيداً عن دروبي
وجلستَ متربِّعاً على عرشك تحكي حكايات الغرام لأخرى ورسائلي التي
تأتيكِ تصنع منها سلّماً للوصول إلى أخرى لا تعرف القراءة. ولا تعرف بأنها
من دم العشق قد كُتبت.

اتفقنا على الافتراق بهدوء واطمئنان، لمَ افترقنا بثورات هائجة وحرب
أضرمناها وأشعلنا بقلوب بعضنا، لمَ سرقت لبّ قلبي ورحلت معلنا انتصارك

على جرحي، رميتني بأسهم العتاب والملامة فقطعت حبال الود بيننا وتركتني في مهبّ الآلام، أتجرع ويلاتك التي ماكنت لأنجو منها بسهولة، ألم نتفق على وداعٍ نستذكره طوال حياتنا بفرح يغمر قلبينا؟ لمَ جعلته فراقا نبكيه عمراً بأكمله؟

وحدك من أكد لي أن كل الأشياء الجميلة تشبهني وأن الاقتباسات المتوضّعة بالكتب كانت تشملني بجاذبيتها، أخبرتني بهمس طال واستطال بأن الزمن لا يقف فرحاً إلا معي، ولكن أين أنت الآن وقد رأيتك تقف مرحاً مرات عدة دون أن أكون معك.

مولهة بك وبكّل لغات العالم أكتبها، مدلهة بك وبكل لوحات العالم أرسمها، عاشقة لك وبكل سمفونيات العالم أعزفها، ليقرأ الجميع حروفي ويشاهدوا لوحاتي وليسمعوا ألحاني فليعرفوا حينها إنني أتنفسك عشقاً، لأنك نبض القلب ودقاته.

أتيتُ أرضك وكانت جدباء لا زرع بها ولا نبات، خلعتُ عني رداء الكبرياء وزرعتُ بذوري، سقيتها صباحاً وفي المساء كنت أرويها، كبرت بذوري في أرضك واعتنيتُ بها لتكبر أكثر وأنت تتأملها، وحين تفتّحت ورودها قطفتها لأخرى لا تعرفك، أغرمت هي بورودي فجلبتها لأرضك لتنعم بحديقة الحب وحدها ورميتني إلى أرضٍ أخرى قاحلة لأزرعها لغيري، أنا يا سيدي وعيتُ درسي وفهمته، لن أزرع بذوري مرّة أخرى في أرضٍ لا أملكها.

لم تكن ليلة عادية كنت أميراً فيها، كانت ليلة طويلة وعشتٌ فيها أروع الأحلام والخيالات، فطلبتك في جنح الليل من خالقي، وبكيت كثيراً وأنا أتوسل إليه، أن يخلق جزيرة صغيرة لوحدنا، لا مسافات فيها ولا بعد، لا شوق يقتلنا ولا حنين يفتك بنا، وصحوت في الصبح على كلمات العشق يرسلها قلبك إلى قلبي، حتى رأيت أجمل ما في حياتي أنت وأجمل ما في صباحي ابتسامتك، تلاشت الأحلام لأستيقظ على واقع لا أرغبه، لست فيه، وبعيد فيه عني آلاف الأميال وقلبك مسافر إلى البعيد، إلى حيث لا القاه بتاتاً.

كانت كل الدروب تؤدّي إلى ذكرك، مازال قلبي يحنُ لساكنه الأوّل، وعقلي مشغولاً على الدوام بالتفكير بك، مهما ارتحلتُ أجدني دائمة الانشغال بك وكأنّ الله ما خلق سواكَ، ومازال عقلي متشبّثاً بك، ومازلتَ في ذهني ومازال كلامك المنسي يربكني ومازلتُ حائرة في نسيانك.

حين تبتسم يمتد غصنٌ أخضرٌ لقلبي وينتشر في قلبي، فتتفتّح أزهار كلماتك بعبقها الفواح لتغمرني بسعادة لم أشعر بها من قبل، أناديك فتلبّي نداء قلبي المتيّم بهواك، وما الحبّ إلا شعور يدفعك إلى أن تشعر بشعورٍ لم تشعر به من قبل، وحبك هو أجمل المشاعر التي يترجمها عقلك إلى قلبي.

لا ترحل، فإني والله لا طاقة لي بقتل قلبي مرتين، مرة حين استوطنته ومرة حين رحيلك، ابقى ليبقى القلب لي وفياً. وحدي مشيت في درب كان لنا فيه لقاء، نادتني طرقاته لتحتويني كما السابق، لتمسح عبراتي الهاتفة باسمك.

سمعت صوتك هامساً من أعماقها، تغازلني، تداعبني، تناديني، لكن سرعان ما أفقت من خيالاتي مرتعبة، إذ لم أجد سوى بقايا حكاية حب تنبض بروح الأمس وكأنها ما كانت.

أنت اختياري وخياري لا يخطئ، أنت خير الناس لي وخير من آمنت به، وخير من صدقته ورسم الحب في قلبي فأحاله براكين من وله فاضت به مشاعري على أجزاء من جسمي فانتفضت الروح بعد أن عبث بها الأرق وداهمتها ليال الشوق والحنين.

الليل قاتل متخفي، لا يعاقبه القانون، يقتلك ببطء دون مراعاة لمشاعرك، يباغتك بموجات من الحنين القاسية، تنكمش على ذاتك وتصرخ وتتأوه، تتقلب في فراشك مناشداً النوم أن يباغتك فجأة كي تستريح، لكنه يطول ويطول، يخّيل إليك أنه مكث قروناً في تلك الليلة الآثمة، وحين تهدأ يعود ويفاجئك بكم هائل من الذكريات الصغيرة مع تفاصيلها الدقيقة، تجلس ترفض النوم ليأتي الشوق ويحتضنك فتنام باكياً بين ذراعيه.

وإني لأراه في سراب من خيال، في أحلام في الظلام، يطرق باب قلبي ثلاث، أرفضه في صمت، يأبى العودة، يعانق مخيلتي، يحتضن آلامي، يمسح عبراتي، أعاود رسمه في سقف غرفتي، أحاوره كالمجانين، وحين يشتد الحنين أغمض هاتين العينين وأستحضره خيالا في سراب.

حين رآها أدرك أنها الحب التائه منه، كبر حبها في قلبه بدقائق من وله ففاض القلب وما عاد باستطاعته تحمل المزيد، فاض على كل أنحاء الجسم فبات عقله مشغولاً بها على الدوام والخيال سافر إلى أرضها ليعانقها شوقاً وحنيناً، نظرت العين إلى جمالها فحبستها بين الرمش والجفن، أما الأنف فحاول الاحتفاظ برائحة عبيرها قدر الإمكان، بدأ اللسان يغازلها والقلب يلثم الحب فيها، عانقت الأيدي الأيدي واشتبكتا فتمنيا توقف الزمن لحظة العناق، فما كان من القدمين إلا أن تهرول إليها فيعانقها الجسد بقلب ينبض بغرامها.

مالكَ لا تبارح عقلي إلا قليلاً، وحين تغادر عقلي تستوطن القلب لتعلن دقاته غرامها بأبجديتك، فأكتبكَ على الورق حروفاً لا تمحى، ويبكي

الهامش ليقول "ما لي أراني وحيداً دون الكتابة عنه، فأزيديني يا أخيتي ولا تنقصيني" فأكتبك على الهامش وأتغزّل بك حتى تحنّ السطور لمرآكَ، وتقسم لي بأنها ما أغرمت يوماً بأحدهم كغرامها بكَ، حينها أعلن غيرتي عليك والحروف تشهد وأحاول محي ما كتبته، تنتفضُ الممحاة وتخبرني بأنها لا تمسح حروفاً صادقة تنبض في الحب، أعيشُ بعدها بحيرة من أمري، تارة أغار عليكَ من سطور أغرمت بك، وتارة أشجع الممحاة ولا أعارضها. فهنيئاً لك ولمكانتك الجديدة بين السطور.

لم أمنحكَ قلبي إلا بعد أن تأكدتُ من أنّك لن تفرّط به، لكنك لم تكن مبالياً به، فأعدته إليّ رقعة بالية ليس فيها حياة، وعلى أعتابك بكيتُ وفي محرابك تبتُ عن أوزارٍ لم أرتكبها، استهزأتَ بجراحي وسكبتَ عليها كحولاً وأعلنتَ الانتصار. هربتُ منك وركضتُ وقلبي بين ضلوعي ينزف وعبراتي تنسكب كغيمة شتاء. جلستُ بعدها على قارعة طريق مجهولة أخيطُ جراح قلبي وأرقّع ما أتلفته فيه، مرّ على قلبي عابرو سبيل كثر وكلّهم يرحلون فلا يريدون لملمة شتات قلبٍ مكسور. وبقيتُ وحيدة أتسوّل الحبّ من سارقي القلوب.

ربما كنت تواقة للهروب دوماً، لكن لا سبيل لأجدك، كنت دائمة البحث عنك وحين أجدك أهرب منك إلى نفسي لعلها تحميني من حبك، أومن بالحب بين عينيك وبصدق كلماتك ولكن الخوف يمنعني من التقدم خطوة إلى الأمام حيث الأمان، لذلك أتراجع إلى الخلف خطوات عديدة بغية الهرب إن قابلت خطواتي خطواتك.

تعال نلتقي وسط الدروب، تعال كما أنت، لا تضع عطراً ذا رائحة تسعدني لحظتها وتشقيني عمراً بأكمله، سأتعلق برائحتك وسأبكي كلما مر من أمامي بشري يحمل ذات الرائحة، ستستوقفني وسأتكأ على عكاز الذكريات وحدي، سأقع في حفرك الكثيرة، وربما أتهور وأضمه مغمضة العينين فأتخيلك أنت، سأبكي دهراً دونك، ستتعبني تلك الرائحة كلما وقفت أمام بائع العطور ويحملها بين يديه ويرش منها على ثيابي كي أبتاعها مرغمة، فأهرب من ثيابي ومن نفسي وأحاول أن استحم كي أزيلها، ولكنها تبقى عالقة في أنفي تذكرني بجمال عطرك فأتمنى كثيراً أن يختفي ذاك العطر من الأسواق ويبقى لك وحدك.

نادم أنت أتيتني، عبراتك لا تنتهي، توسلاتك لا تنطفئ، تخبرني أن أعود طفلة بين ذراعيك تلاعبها، امرأة بين يديك تغازلها، أنسى السنين وعلقم السنين

وأعود إلى بستانك مرة أخرى قطة تلعب في حواريك الضيقة، نادم أتيتني وفي قلبك حب جديد لقلبي الصغير

ذبُل قلبي وازداد ظلاماً، ظننتُ من فرط هواي بأنّك منقذي، فأهلكتني ودمّرتَ أيامي، وصبرتُ على دمع الأيّام، فضجرتَ من صبري وأسقيتني علقم الغدر بكأسٍ لا يُرى، وكتفّت يديك تنظر إلى ضعفي تستهزأ بخيبتي، تأمّلتُ ظلام عينيك فعلمتُ أنك للعناق راغب وللحبّ مبادر. لكنّك رحلتَ دون سماع كلماتي وتركتني أندب الهوى وألعن الغرام.

أحببتك بجنون عاشقة، وسعيت جاهدة لإصابتك بمس جنوني، كنت تلميذة بليدة لم أستوعب رفضك لمشاعري، فحاصرتك بسيل من المشاعر ومارست عليك الغيرة، وفي النهاية أكملت حياتي مكتفية بحبك، بينما اكتفيتَ بهروبك مني.

ليتها كانت مثلهن، هذه أمنيتها في الحياة، فهو كريم في كلام الغزل معهن أكثر منها، في كل مرة تتردد وهي تحادثه لم لا يبوح بمكنونات قلبه لها، أليست حبيبته؟ أم انه يراها كالأخريات مجرد جسد. تباً له أفسد عليها سعادتها، أغلقت هاتفها وتدحرجت دمعة يتيمة هوت إلى القاع، أقسمت أن لا تحادثه أبداً فهي المميزة وليست فتاة من فتياته الكثر، لكن بعد مرور ساعات بعثت له لتطمئن عليه وتتمنى في سرها لو يخبرها باشتياقه ولكن هيهات أن يتكلم ويفضح قلبه

عالقة في المنتصف المميت، لا التقدم يحييني ولا الرجوع يشفيني، لا ادري كم مضى على مكوثي هنا، كم قرن ودهر، وأنا أخشى التقدم، وأخاف التراجع، والحيرة تفتت عقلي، والخوف يأكل قلبي، ولا أحد ينير عتمتي، ولا

أحد يستطيع إضاءة قلبي، ومازلت في المنتصف يرعبني كثيراً التقدم خطوة واحدة للأمام، ربما سيكون مجهولاً والخلف سيبكيني كثيراً ويقتل الحياة فيّ.

على حافة ذاك النهر الجاري وقفت تملئ جرتها من فيض النهر، في حين وقف هو قبالتها على الطرف الآخر يتأمل ذاك الملاك بشعرها الأسود الطويل، اعتراها خجل غجري، فركضت دون ملء الجرة، لكن ذاكرتها احتفظت بوجهه، وصارت كل نهار حين تملء جرتها تراه بابتسامته اللطيفة وقامته الممشوقة أحبته وهامت به كثيراً، لكنها كمثله لا تستطيع اجتياز ذاك النهر الجارف، وانتظرا سنيناً وهما على هذه الحال إلى أن تم بناء جسر ليصل القريتين ببعضهما، قفز من الفرح قلبها، ركضت ونسيت أن تملئ جرتها، انتظرته وهي سعيدة لأن هذه المرة تنتظره مكانه الذي اعتاد أن ينتظرها فيه، لكنه غاب ولم يعد أبداً، وبقيت هي حبيسة الانتظار .

قيدوها بعاداتهم وتقاليدهم، أخبروها بأنها لا تصلح لشيء، قصوا أجنحتها ورسموا طريقها وكان شائكاً أدمى قدميها الحافيتين، كبّلوها بأعراف القبيلة وأوهموها بأنها أمة مهما علا مقامها، أجبروها على ارتداء زي العبودية وأحكموا قيدها. ظلت هكذا دهوراً وهي صامتة حتى جاء اليوم الذي

رأت فيه الحبل حول جيدها وقد انحلّت عقده، فقصّته وهربت، نجت من شرورهم. بنات مجتمعها كن يجتمعن كلّ ليلة يروين عنها حكايات لم تحدث، فهي كانت أول من تمرّدت ولولا جبنهن لكن هربن معها، ولأنهن أجبن من أن يفعلنها نسجن حولها قصص وحكايات لا تمسّها.

عدنا ولكن لم يعد الودّ الذي كان، أين أحاديث الغرام وأين الهوى؟ عدنا معا ونسينا حكايات المساء على أعتاب الهجر، أين أنت؟ وأين أنا؟ ولماذا كلامنا شحيح وصمتنا كثير، عدنا ولم تعد ليالي الحب تطرق أفئدتنا ولم يعد ربيع الوله يزهر في قلبينا، عدنا ولم يعد الحب معنا، تركناه لهم وبقينا نحن غرباء على رصيف حكايات لا تباح..

إحساسي الجميل أنت، فالحب لأجلك خلق، بدونك أنا في متاهة لم أخرج منها إلا حين امتلكت مفاتيح قلبك، أين أنت يا ملاذي وملجأي من تعب الحياة؟

أين أنت يا جمال الحياة وروعة البحر والسماوات؟ ملكت روحي بصدفة من القدر وجعلت سعادتي بك قد اقترنت.

لا تسأل محب لم أحب، بل انظر إلى لهفة الشوق في عينيه، إلى رجفة يديه، دقات قلبه المضطربة، انظر إلى حاله وستعرف بأن مرض الحب داء لا دواء له، مرض أزلي يستحوذ على الفؤاد فيذيبه هامساً للنبض كي يوقفه، انظر إلى لمعة عينيه وشرودهما، فهما الوحيدتان القادرتان على البوح بمكنونات هذا الحب العظيم، لعلك تشفق عليهم وسيأتي يوم لا تجد من يشفق عليه في زحمة قصص الحب الكثيرة والتي ستكون يوما بطلاً لإحداها.

أقفلت جميع الأبواب عدا بابك تركته مفتوحاً على مصراعيه غير آبهة بالأعاصير والرياح العاتية، فقد كانت نسائمك تهبّ علي كل حين لتنعشني وتحييني. أقفلت جميع النوافذ عدا النافذة التي تطل على عالمك، فقد تركتها مفتوحة لأنها مزينة بحبك وهيامك، تركتها قاصدة غير آبهة بما قد يدخل منها، فوجودك خلفها يبعث في قلبي حياة أجمل بكثير من دونها، أتلفتُ جميع الأدوية التي منحها لي الأطباء ولجأتُ إليك دواء ناجحاً لجميع الآفات

والمعضلات، وفي ختام كل ذلك ومجيء الأمل غداً، أخبرك أنك أنت الخير لكل عيد ولكل الأيام.

سرق مني طفولتي واختزنها في جيب بنطاله هامساً بأذني " لا تستحق طفولة سعيدة" ورماني في جبّ الضياع، توسلّتُ له العتق من هيمنته، ولكنه استهزأ بجرحٍ لم يذقه، وركل دمعتي وقذف بي لوحوش الظلم تلهو بي وبعدما انتهوا تركوني وحيداً حتى كبرتُ ولسعة السياط في جسدي ما زالت تؤلمني، فأهرول كلّما اقتربتُ من ذاك المكان وأقف خلف جدارٍ مهترئ استمع إلى صيحات طفلٍ لم تصل إلى أذن بشري، كبرتُ ومازالت الصرخات تشقّ سكون الليل فأفزع من حبل الأرجوحة وكلّ ظنّي بأنه سوط سيلسع جسدي الليلة.

لم أفهمك جيدا ولكن فهمت دموعي حين انسكبت شلالاً غزيراً على شيء مختزن بداخلي وحين مسحتها أدركت أنها أنت، فتمنيت لو تبقى قليلاً، أي قرون كثيرة، وحين رفعت عيني، أفتش عنك، لم أجدك، حبست حينها عبراتي، ووضعت يدي على فمي كي لا أصرخ باسمك فتعرف الناس أنك

سبب انهياراتي، خبأتك كالموت في ذاكرتي، الوصول إليك مرة واحدة لا تتكرر.

على تلك الجدران رسمنا يوما أحلامنا، كتبنا أسماءنا، عزفنا الحب عليها على أوتار من أمل، عدنا إليها في ليلة قاتمة متشحة بظلام الألم، صاخبة بحرب مستعمرة، لنبحث عن الجدار وعن أشياء كتبناها عليه، لكن رأينا الأحلام وقد ضاعت أمامنا ودفنت معها آمالنا.

غيابك صباح دون الندى، فرح وسعادة دون البسمات، لن أتصور الحياة دونك لأن قلبي يحتاجك على الدوام، فالأحلام ارتسمت في واقعي مذ رأتك عيني وأعلنتك ملهما لأشعاري، أنت عالمي وحياتي، داءي ودوائي، حبك عالم كبير من الخيال يفوق الوصف والمشاعر، هبة من الله لي فحبك متجدد العطاء كالربيع.

أفقتُ من سباتي وقد تجاوزتُ الخامسة والثلاثون وأنا افكر متى تجاوزت الثلاثون وماذا حدث فيها، في أي سنة تجاوزت الحادية والثلاثون، هل كنت متعبة مرهقة في الثانية والثلاثون؟ أم سعيدة مبتهجة في الثالثة والثلاثون؟ أين كنت حين مرت علي الرابعة والثلاثون. مر شريط الذكريات بذهني خاوياً فارغاً من كل ما فيه وأنا لا أتذكر حدثاً مهما طرأ علي في تلك السنوات الخمس، ماذا فعلت بها؟ وكيف عشت سعادتي بها أكانت مغلفة بالآلام أم الأحلام؟ لا أدري كنهها؟ ما قضّ مضجعي أن السنوات مرت سريعا دون أن أجاريها أو أسعد بها أو أعيش لحظاتها عالمة بأنها لن تعود مجدداً.

في ضياع تام كانت تعيش، كانت بحاجة للحب الصادق النابع من القلب، ولا أحد يستطيع منحها إياه سوى مالك، تحتاج لكتف تستند عليه في هذا الشتاء القارص، مالك فقط من يستطيع سحبها من بوتقة الأحزان، كلما ازدادت ليالي الشتاء برودة زادت هي حنيناً لشخص مجهول.

هل حقا عاد إليها كسابق عهده يحبها ويدللها ويعشقها فهي أميرته التي لا ترى في الوجود غيره، أم أنه يراوغ كالثعلب، يهتم بها أشد الاهتمام،

يداعبها، يعشقها، يسمعها كلام الحب، وهي تقف في منتصف طريق لا تدري أيهم تختار، هل تركض إليه لتختبئ في حنايا ياقته؟ أم تبقى حذرة منه لأنها لا تريد التعلق بشخص يحسبها شيئا من أشياءه الذي يتخلى عنها وقتما يشاء.

طال انتظاري على أرصفة الطرقات المهجورة والحزينة، الخالية من المارة، أفتّش في جيوبي عن تذكارٍ كان لأحدهم واختفى في زحام الأساطير الوهمية، أنظر إلى الساعة فيهزأ بحيرتي ذاك العنكبوت العجوز والذي يعيد بناء بيته للمرة الألف في كلّ مرة يدمّر عقرب الدقائق بيته، وانا انتظر والعنكبوت يكمل بناء بيته والساعة لا تتوقف عن الركض ولكن إلى الخلفِ، تتبّهني أن أركضي ولا تلتفتي، فالانتظار لا يخلّف سوى انتظار. يبقى الأمل يحدوني بأن ما انتظره سيأتيني، ولكن طال الانتظار على رصيف ذكرياتنا، وكأنه ضلّ الطريق، وربّما فقد تذكرة العودة إلى طريق موحشٍ كان لنا به يوماً أجمل الذكريات.

التقيتك غريبا فظننتك عابر سبيل في محطة من محطات حياتي، لم أعرك أي اهتمام، ولم أستقبل اتصالاتك بادئ الأمر، كنت بنظري الفضولي

الذي يقتحم حياتي دون استئذان لذلك لم أأبه بك وبمحاولاتك المتكررة لاستمالتي، والآن وبعد أن أصبحت حبيباً أتركك لقدرك، واترك ذاتي لقدرها لأنه في النهاية لا قدر يجمعنا، فلنفترق في البداية.

سلمته القلب والروح، ولكنه لم يحفظ الأمانة فأعاده إليها مخدوشاً بجروح سطحية، اعتزلته وداوت فؤادها فكسبت الكحول عليه لتطهّره فتألّمت وتأوهت، وبعد أن طابَ وطابت الروح عادَ إليها معتذراً، يبكي حسرة غيابه، استأذن ثانية واستلم منها القلب سليماً، فلم يحفظ الوعد وأعاده إليها بجروح غائرة، وتركه بيدها بندوب صعبت عليها مداواتها، استغرق الأمر معها سنين عديدة وقد اعتزلت الجميع حتى أعادته كما كان ولكن كانت روحها قد استهلكت، وحين جاءها للمرة الثالثة تأمّلت توسّلاته النادمة ألا يعيد كرّته، ابتسمت وهمست بألم " سأمنحك إياه كاملاً، لا تعيده البتة" كانت شديدة البأس وهي تجتثّه من أوردته.

كان ينبض حين أخبرته بذلك، والآن وقد جثا أمام جثّتها، ماذا يفعل بقلبٍ ميّت؟ ها هو يبكي ندمه وخطيئته الكبرى والقلب بين يديه قد سكت إلى الأبد.

تبا للجغرافية كيف تبعدك عني مساحات وفي الخرائط تقترب المسافات، وماذا عن القلوب وهي تعانق بعضها رغما عن الحدود.

لم أعد أعاتبك كما كنا ولم اعد ألومك على شيء، هفواتك لم تعد تعنيني، وزلاتك لن المحها أو سأتغاضى عنها، لنعد إلى الوسط فالعودة إلى البداية مرهق ويستنزف منا الكثير ونحن نحاول الاندماج والنهاية ستكون مؤلمة لكلينا ولكن الوسط سيجعلنا نختار الأفضل لنبقى أو ننسحب.

تائهة أنا في قصرك الكبير، عالقة في زواريب قلعتك، مشتتة في غابات روحك، ظلامك أغمض عيني وحجب نور الأفق، أبحث عنك في كل المرايا، وأفتش عنك في كل الحكايات لكنك وهم أتيتني، ما إن تضيء عالمي حتى تتلاشى كالسراب.

وتسألني في هدوء وخوف من المستقبل:
من أكون أنا في حياتك؟

أنت شمسي حين أغرق في الظلام.
دوائي حين يحتلني الداء.
سعادتي حين يغمرني الحزن..
ضحكاتي حين تبللني الدموع..
أملي حين يحطمني اليأس
شبابي حين أصل الشيخوخة
قوتي حين ينالني الضعف..
وطني حين أصاب بداء الغربة

استهلكتني فأهلكتني وما عدتُ قادرة على الوقوف، نظرتُ إليك بدمع العيون أن تعيرني كتفك لأستند إليه، لكنك مررتَ جانبي وعبرتَ من خلالي دون أن تنظر إلى حطام أيامي وإلى بعثرات أوهامي، رحلتَ كطيفٍ يخشى الظلام بعد أن أغرقتني في ظلامك. فاستنزفتَ طاقتي وسعيتَ لبناء نفسك من خلالي، وتركتني أهوى وحيدة رويداً رويداً دون أن تسندني ودون أن تسعفني بكلمات الهوى.

نادته مستنجدة، "أيا صديق العمر فلتساعدني، أنني أحترق دون نار ورماد، دخاني أعمى عيني، فلترأف بحالي" لكنّه لم يبصر دخانها، ومضى وكأنّه بطلٌ لحكاية أخرى. كيف تشرح له بأنها تحترق من الداخل وما هذا الدخان سوى حريق يلتهم جسدها كل ساعة؟

عادتُ تناديه برجاءٍ ممتزج بتوسّل، فنظر ببرودٍ إلى جسدها وحين تأكّد بأن الدخان صادر منها، أتى لإنقاذها ولكنّه تلكّأ في السير على أرصفة ذكرياته.

وصل الفتى متأخّراً وهو ينسج اعتذاراته فما لمحها، وإنما لمح بقايا من رمادٍ، نثرته الريح هائجة فأعمت عينيه. ومن يومها وهو يتوكّأ عصا الندم، يوقف المارة ويصرخ بصوت عالٍ "أن لا تهرب مما تحب، فالحريق إن لم تره، ستحصل في نهايته على ذرة رماد منثور".

حين كنت تمضي وكنت ألوح لك بيدي الباردة وأنا أصرخ "وداعاً عمري" أي أن عمري قد ودعته بوداعك، لم ترحل في كل مرة وحدك، ففي كل مرة كنت تأخذ شيئاً كالقلب والروح وهذه المرة العمر، لا تطل الغياب، وأعط كل ذي حقٍّ حقّه كي أحبك بقلبين وروحين وعمر كامل.

ليست على ما يرام، باتت تفكر به كثيراً وتتوه بصوره دائما، ذبلت عيناها من شدت ما تأملت تقاسيم وجهه، تألم فؤادها، حاولت أن تنهض كي تظهر للجميع على أنها بخير ولكنها عكس ما تدعي، يعذبها تناقضها هذا، فكلما زادت جراحها لجأت إلى سريرها، احتضنت صوره وغفت، وكلما سألوها عن سبب شرودها، تجيبهم: لا شيء، وتتمنى لو يدخلوا إلى قلبها ويعلموا الشوق الذي يأكلها يوماً إثر يوم.

لا تقل وداعاً وتمضي هكذا، تبتعد أميالاً دون الالتفات إلى ورائك إذ خلفت غيوما تعج بدموع منكسرة، وقلب يتبعك في متاهات صعبة الوصول، روح هشّة تنزف خيبات قاتلة، لا تقل وداعاً وتمضي فتغلق جميع الأبواب بيننا، اترك باباً واحداً مواراً لعلك تحتاجه غداً.

كانت حين تنظر إلى المرآة شيء بروحها يتغيّر ويتبدّل، كانت تشعر بقوّة خفية حين تبتسم لنفسها تلك الابتسامة النقيّة، إنها هي كما أرادت أن تكون دوماً مثالاً للقوّة، فرسمت جسوراً من أملٍ تهرول عليها دون أن تقع وتمكّنت من لفظ الدمع من حياتها، وفي كل مرّة تقف أمام مرآتها كانت تُسكتْ ضعفها وتردد بأنها الأقوى رغم الخطوب التي ألمّت بها، يكفيها هذا

الشعور لتنهض من كبوة الألم لتطير في ميدان عزتها ولتنفض عنها ركام الخيبات.

ومن قال أن الاشتياق كتب للعشّاق.
الكثير منا يمارس الاشتياق كل مساء إذ يأخذنا الحنين لذكريات الطفولة، لأماكن الصبا، لحروف من كانوا يوما بلسماً لجروحنا، وأحيانا نشتاق لبعض المشاعر والأحاسيس.

تركتها للقدر هذه المرة فهو يتجاهل ما يتمناه قلبي ويسعى بي إلى طريق الخير، فاستكن أيها القلب المتعب واثبت فإن كان الهوى نصيبك سيأتيك على طبق من ذهب وإن لم يكن كذلك فدعه يذهب وتمنى له الخير وادع لنفسك بخير منه واصبر على ما أصابك...

لم أعتقد أبدا بأنني أنا المرأة العصية عليك كنت أن أستسلم لك ببساطة هكذا، لا أعرف كيف بدأ الأمر، إذ تنازلت لك عن قلبي ذات مرة

هذا ما أذكره، ثم تنازلت لك عن حياتي بأكملها وانتهت التنازلات باستسلامي وبخضوعي لبئر حبك.

بين كلماتك يتوقف الزمن يستمع لهمسك، يتعلم كيف تمنح السعادة بلا حدود، يراك فيهبنا أوقاتا كثيرة مليئة بالحب والهيام، فتعود لتقدم لي أفضل ما لديك بابتسامة لطيفة والزمن يقف لكلينا.

سأزرع الأرض ياسميناً أرويها من فيض حبي، فتنمو وتكبر حبا وعشقا، فحين تمر من تحتها تراها تهمس بحروف اسمك وتسقيك من شهد حبي

لا تطل الهجر والبعد، فالفراق لم يكتب لأمثالنا، نحن من رسمنا الأمل على صفحات الحب ولوناه بالفتون وصبوة العشق، أيعقل أن نغب عن بعضنا ويغيب اللون عن لوحاتنا وكأنها لم تلون من قبل، فالهجر ليس من

عادات المحب ولا العاشق، كفاك غياباً فقد تعب قلبي وبدأ عقلي بالاحتضار وهو يرسم كل دقيقة أحداثاً تعانقنا لن تأتينا قريباً، وربما تباغتنا المنية قبل اللقاء.

أخاف أن أمضي بقية حياتي منطفئة لا تستطيع مواساتي مهما أشعلت من إنارة في طريقي، وهربت مني لأدرك حينها أن الجرح أكبر من ندبة في القلب، الجرح تغلغل في الجسد واقتطع الأمل مني.

بيني وبينك مشاعر الحب الأربع والعشرون من حب وولع وجنون وآخرها الألم..

بيني وبينك بريق العيون ورجفة الشفاه وعناق الأيدي.

بيننا أحلام وآمال وأحاديث كثيرة، ما بيننا ليس بغض وإنما حب وسيبقى وإن مازلنا ندعي اللامبالاة ونحن ننظر ونتآكل من الداخل، سيبقى الحب لأول حياة عرفتها وليس لأول حب.

همسوا في أذنه "ستنجح"

ولكن أفعالهم لا تدلّ على ما قالوه، حاربوه ووضعوا الحواجز في وجهه.

هناك من أشعل في دربه نيران حقده، وهناك من قصّ درب العودة إليهم.

رأى نفسه وحيداً ومع ذلك لم ييأس بل واصل السير، قفز فوق الحفر التي حفروها، صعد الحواجز بصعوبة، أطفأ النيران وظلت الندوب موشومة على جسده الغضّ تذكره بفعلتهم.

وحين وصل إلى نور دربه وأعلن الانتصار، تجمهر الجمع حوله يذكروه بإنجازاتهم والتي لولاها ما وصل إلى القمة.

صفقوا له ووقفوا بجانبه لحظة التصوير ثمّ انفضوا.

وكأنهم ما عرفوه يوماً، وفي كل مرة يشار عليه إنه بطل، يصرخون بأنه صديقهم وأنه يعيش بينهم وبأنهم الفضل الأكبر في نجاحه.

ومازالت عيوني تتأمل الغرباء بحثاً عن بريق عينيك، مازال صدى صوتك هامسا في أذني يمنعني من سماع الجميع، يسرقني منهم ليبقيني في عالمك غارقة انتظرك ولم تأتي، مع أنني أعلم أن ما يصيبني يصيبك

أضعافه ولكنك مكابر يا سيدي، لن تنحني ولن تأتي، وكلانا سنبقى ننتظر لأحدنا كسر جدار الصمت.

لا تستطيع الهرب من جنة حبنا، فأنا الوحيدة التي أحببتك والوحيدة التي أدركت أسباب وحدتك كلها وجعلتها ماضياً، أعرف أكثر مما تعرفه أنت عن نفسك، أراك في كل الأشياء المبهجة.

لم أطرق باب قلبك ومن ثم هربت كالأطفال. لم أكن عابرة سبيل ولت وانقضت، بل كنت لك منارة حب مشتعلة، دخلت من بين فراغات أصابعك كالعطر الذي تستنشقه يومياً بغفلة عني، فعطر الجميع يتعبني وعطرك وحده يحييني.

لا تحتاج لشرح آلامك لي، لأنني شاهدته يتحرك بقلبك ثم ولى إلى قلبي.

لن تحتمل الهروب أكثر من ذلك لأنك حين تستيقظ وتدرك أنني لم أعد موجودة معك.

ستعرف حينها أنني كنت بين يديك أرتجي حبك وضيعتني. ستعود ترتجي الحب الذي كان، تبكي ضياعه ولكن هيهات أن يعود إليك.

تعال إلي ولا تبتعد أكثر.

قص شريط المسافات بيننا.

فالعيد أوشك على الوصول أتراك ستعود معه؟

الخريف بات قريباً والمسافة بيننا تكبر بعدد ما تساقط من أوراقه العام الفائت.

سيهطل المطر وأنت برفقتها، تراقصها حين يشتد، فيشتد حنيني إليك، يطرق بابي، يعانقني، يعيد إلي ذكريات سقطت في بئر النسيان.

تعال إلي لأن العمر يمضي وسينتهي وأنا وحدي وأنت معها.

في كل مرة تلجأ إلى والدتها، تشكو خنجر الغدر، تبكي في حضرة الحنان، تدمع لها والدتها وتضمها برفقٍ ولين. تحكي بألم عن الغدر والخيانة والهجر. فمازال سهم غدرهم عالقاً في منتصف ظهرها، لا يمكنها انتشاله كي لا تنسى ما أحدثوه بقلبها من نكبات.

وأمها تستمع وتمسح عبرات صغيرتها حتى فرغت من همسات الوصب ونامت في جحر والدتها، تحسست الأخيرة ندوب سهام الغدر التي أصابتها. كانت كثيرة ومازالت تؤلمها، ضمّت صغيرتها أكثر متمنية لها أن تفهم أن الحياة ليست عادلة.

لا تسرقني من وحدتي إن كنت غير قادر على الجلوس طويلاً في ساحتي، لا تأخذني إلى دنياك إن كنت تملّ سريعاً، دعني كما أنا ولا تطلب القرب وأنت تغزل خيوط البعد، لا تذهب من الباب فتجلس أمام النافذة تراقب.

إما أن تعود عودة لا رجوع بعدها وإما أن تكف عن اختلاس النظر إلى قلبي فهو ما عاد ينتظرك.

كبرت وردتي جوار قلبي، من قمح روحي سُقيت وبحناني نمت.
أسرت قلب كلّ عاشق حتّى تغنّى في عشقها الشعراء، وثمل السكارى في روضتها.

أتيتني كعابر سبيل وطلبتَ من فؤادي رشفة حبٍ لظمآن.
أسقيتكَ البئر وما فيه وما ارتويتْ، طالبتني بالمزيد، أسقيتك النهر الذي أسقي به الورود، شربته كله حتى شحّ ماءه. فذبلت وردتي وانحنى ساقها. رأيتك تقترب منها ومن ثم قطفتها ورميتها أمام قدميك. حين سألتك السبب بدمع العيون. أخبرتني بأن لا ماء أسقيها وستموت في الحال.

ثمّ قبل أن تمضي سألتني إن كان قد نضب الماء فعلاً لأنك لم تشرب في روضتي قط.

مهما كانت قوة حبي لك حين تصل إلى كرامتي سيكون عنادي هو نقطة الفصل وهو القاضي وما أنت إلا متهم ينفذ بحقك عدل المحبة، فلا يغرنك هدوئي إنه هدوء ما قبل العاصفة.

كانت عثرة لا تغتفر حين أشعلت لك شموعي جميعها كي تخطو إليّ بسرعة البرق، لم أترك شمعة واحدة تعيدني إلى نفسي، أطلت الطريق وأنت تلتفت خلفك خائفا حذراً، أبطأت الطريق وسلكت دروبا أخرى متعرجة ومن ثم عدت تمشي على ذات الطريق المنير والذي أنرته لك، طال سفرك وطالت ليالي المظلمة حتى انطفأت آخر شمعة ولم تصل، بقيت في ظلام ظلك انتظر نهارا يأتيني استضيء بنوره، فطال ظلام الليل وبقيت في العتمة وحدي أندب بقايا الشمع المحترق فيا ليتني تركت واحدة تعيدني إليّ.

يا بائع الأقنعة لا تبع لأصدقائي أقنعة باهظة.

فمن جاءك منهم حزيناً امنحه بثمن بخسٍ قناع الفرح وارسم على ثغرك ابتسامة رضا.

كل من جاؤوك عادوا إليّ يسألونني عن قناعك.

لم يرَ أحدٌ وجهك مع أنّ الأقنعة لديك كثيرة. أجبتني حينها بأنها لا تلائم وجهاً دون مشاعر.

كيف سيتعرّف القناع على ملامح باهتة؟

رسمتُ ابتسامتي ومضيت فناديتني "قناعك لطيف ولكن انزعيه حين تكلّميني، إذ لمحتُ قلبك المكسور قبل أن ألمح ابتسامة شفتيكِ"

تأملته قليلاً وأدركتُ كم هو شقي من يبيع السعادة وهو بحاجتها.

نزعتُ قناعي وسلمته له، فما حاجتي بقناعٍ لا يجلب لقلبي السعادة.

وتركته يجرّب الأقنعة الجديدة للمرة العاشرة لعلّها تليق بمشاعر قلبه.

لم يكن الحب أبداً للحبيب الأول، الحب خلق لك وحدك، وبك كبر وأصبح عالمنا الزاهي، الحب الأبدي كتب لك ورسمته أنت حين أخرجت آلامي من عنق الزجاجة المظلمة ، أنت من انتشلني من قاع بحر متلاطم

الأمواج، استطعت نفض أوجاع الماضي عني ولم تسمح للماضي بتدمير حاضرنا، بل جعلته نبراسا لمستقبل سيشرق يوما باسمنا.

رغم أنف الفراق سنلتقي ولو في لوحة على جدار معلقة أو في سطر بكتاب على الرف مركون.
سنلتقي في نغمة يعزفها عازف أصم، في حفل زفاف لن نشارك فيه، في محطة القطار، في حانة قديمة، في معرض الزهور.
سنلتقي ولو توقفت ساعات العالم أجمع ورفض الزمان أن يمضي.
سنتغلب على كل هذا وسنصنع ساعة لنا تكون لوحدنا نلتقي فيها، وسنصنع مكان يخصنا نلتقي فيه.

مضيتَ وفي كل خطوة كنت تمنح الأشياء بريقاً لامعاً.
مضيت والقلب خلفك جر ذيوله دون أن يودعني.
فسالت العبرات خلفك تهذي بك.

وأنت مازلت تمضي نحو ربوع قلبٍ تاه وهو يبحث عنك في ليلٍ صامتٍ حزين، والدموع مازالت تنسكب مع كل قطرة حنين فيحرقها شوق لئيم يأن هذياناً من لوعة الفراق.

وكأنك تريد قتل الروح التي نضجت في الآونة الأخيرة وأنت لاهياً عنها، فلا تطلب فرصة جديدة لأن الفرص استهلكتها جميعها.

في النهاية ضِعنا مع أننا نَعرفُ الطّريق جيداً، نعرف كل الحارات المتداخلة به، لكنه خَانَنا في منتصفه، لم يكن الأمر يسيراً كما ظننا، بل كلّ المَداخلِ غَدت مَتاهات.

لم يُفضِ بي الطريق إلى قلبك. وبقيت وحدك في متاهاته تبحث عن قلبي علك تصله ذات يوم ولكن حينها أكون قد وجدت الطريق، ونجوت وحدي، حينها سأجلس على رصيف الذكريات قبالته انتظر عمراً يأتيني بك.

غادرت حياتي بعد انتهاءك من تدميرها، لم تلتفت إلى ماض جمعنا.
خلفت وراءك فراغا باتساع السماء.
حاولت جاهدة ملء فراغك بحب جديد. لكن في كل حكاية حب تتوج البطل فيما يبقى فشل نسيانك حليفي..

كنتُ لكَ كشمعة سعت جاهدة لإنارة غرفة أعمى، هي انطفأت وهو لم يرَ حسناتها، فهجرها دون أن يشكرها.
كشمعة جاهدت لتكبر ولكنها احتضنت خيطاً أقسم ألا يحترق قبل أن يحرقها.
كشمعة وثقت بعود ثقاب وابتسمت له، وحين مدّت له يداً مصافحة قدّم لها ناراً أحرقتها.
كشمعة مهجورة في غرفة لا تنطفأ فيها الأنوار.
كنتُ كتلك الشمعة عميت أبصارك عن توهجي.

هذا الشتاء سيكون كريماً معنا، فكثير من الآلام حدثت في الصيف، ونزل مدراراً كما اعتقدنا، الكل فرح ورقص له إلا أنا فقد كنت اشتاقك جداً، لم يرَ دمعتي أحد لأنها اتحدت بعبرات الشتاء وشكلت معزوفة موسيقية رائعة

الألحان عزفتها الرياح كثيراً، فتحت فمي لأرتوي من عبرات الشتاء ولكنها لم تروني فقد كنت متعطشة لحديثك، ألا تأتي فترويني ولنترك قطرات الشتاء تنهمر على رؤوسنا فتلاعبنا الريح وتعزف لنا الألحان.

اعتادت على الأمر، فبدأت تعي النهايات قبل حدوثها، كانت تحتاط جداً للأمر، وكأن الخطب قريب منها، أعدّت العدة لكل ما هو جديد ولبست ثوب الحداد، تتأمل ساعة قديمة توقف الزمن بها، تنتظر معجزة في السماء تعيد إليها الحياة لتكمل دورتها كباقي الساعات، وضعت بجانبها ضماد كي تضمد جراحها إن نزفت، ووضعت خيط وإبرة كي تخيط روحها إن حدث بها شق هائل، بالرغم من اعتيادها على كل ذلك إلا أنها في كل مرة يتهشم قلبها وكأنها المرة الأولى. بالرغم من اعتيادها على مساوئ النهايات إلا أن قلبها مازال يتأمل أن يرأف لحاله إنسان.

وجاء عيدك وأنت هناك، في مكان لم أسمع به من قبل.
مكان اخترته أنت سكناً لك بعيد عن كبرياءي.
وتركتني وحدي أبعد أميالاً عن عنادك.

إذن جاء عيدك أهديتك دمية كبيرة واحتفظت بها كي تتسني ولهي الشديد بك.

لكنها كانت تحمل صفاتك فتذكرني بك كل حين.

أسميتها اسمك فكأنها أنت في الصمت والقسوة، أحدّثها عنك ساعات لا تنتهي وأبكي بين ذراعيها فلا تفعل شيء سوى تأمل دموعي بالصمت ذاته الذي قتلتني أنت به.

على باب مهجور كُتبت رسائل عديدة، بعضها عتاب وبعضها حب كان يوماً كبيراً.

انتظرتْ الرسائل أن يُفتح لها الباب يوماً حتّى بلّها المطر وما اشتكت، تغيّر لونها إلى الأصفر وتساقطت أمام عتبة الباب، سرقتها الريح بعيداً، ليلتها سمع الجميع عويل الريح وكأنها فتاة تندب سهاد الحبّ وأرقه. بكت السماء ليلتها دمعاً مدراراً. وكلّ ذلك وصاحب الدار لم يعد، والرسائل في ليالي الصيف الطويلة تكاثرت على عتبته لتحملها رياح الخريف بعيداً فتبكيها السماء مرّة أخرى.

مرهق هو الوداع، حين يأتي على شكل سرقة القلب، ويصبح الفؤاد فارغاً، وكأنك تسقط من مكان شاهق إلى الأرض، فتطفو على غيوم الحنين ولا يداً تمد إليك لانتشالك من ضياع. تصرخ بصوت عواء ذئب جريح (ردّ لي قلبي وارحل) (أنقذني من ليالي الحنين وتعال) وتبكي بعبرات تجرح الفؤاد ولا شيء يصل إلى أذنك سوى صدى صوتك. وكأن الكون خالٍ إلا منك.

هل لك أن تتخيل بأنني ما زلت إلى الآن أذكرك كل ساعات النهار ودقائق الليل؟ لو أنك بقيت معي ولم ترحل لكنت أغرمت بك أكثر وكنا إلى الآن نثرثر في النهار ونحلم في اللقاء، لو انك لم ترحل ووقفت بجانب الباب نتكلم ونتكلم لكنت دخلت وأغلقته خلفك مبتسماً سعيداً بعودتك سالماً إلى حكاية جديدة من حكاية نجوى الحب، فدع عنك الجوى وتعال إلى الهوى كي لا تهوى في بئر الفراق ولا تستطيع حينها الصعود إلى عرش الحب.

ساعات الانتظار لها مخالب تنهش الروح فينا، تدقّ الساعة معلنة منتصف الليل فيتسارع الشوق والحنين إلى زيارتها. يكبّلانها بالأصفاد وتمرّ الساعة بطيئة والعنكبوت الهرمة تنسج خيوطها بدقّة على عقاربها. حتى إذا ما مالت الشمس قليلاَ وبزغت والساعة أكملت مهمتها لوحدها ونفضتْ عن

كاهليها الشوق لتنهض فعاد الحنين ليقعدها حين دقّت الساعة معلنة نهار جديد سيمر دون الغائبين.

ابحث بين الحطام عن وجوه كانت لي رفيقة فلا أجد فيها من يخبرني بأنني لن أجد ما ابحث عنه، لأنها نادرة الوجود فلا شيء يشبهها.
ولكن رأيت الكثير ممن يبحث ويجد ما يريد، وجوه متكررة، ضاحكة، حزينة، أتعبتها الحياة واستنزفتها.
إلا أنا جلست على ركام الحياة أتأمل وجوداً لا يشبهني، وبداخل الروح غربة عميقة وصقيع يأكل قلبي ببطء لا ينفك يذكّرني بأنني لا انتمي إليهم، وإنما إليك فقط.

ومازلت كالطفل الصغير أقف حيناً وأتعثر أحياناً، أتمسّك بتلابيب هيامك كي لا أهوى في بئر النسيان، أستحلفك بالله أن تقويني، أن تنتشلني من قاع الألم وتجرني إليك، أمشي ببطء نحوك، عيناك تتأمل كسوري وجراحاتي، تبعد ناظريك عني وكأنك لم تفهمني بعد، أسقط أرضاً، أناديك

بصوت فيه الرجاء والأمل، فأنا مازلت في طور الحب، علمني كيف يكون، ولا تبتعد عني لأنني لم أستطع الوصول إلى نقطة حبك.

كنت أطير في السماء، أغني للحب والسلام، إلى أن رأيت عينيك تختبئ خلف الأشجار الضخمة تتابع تحليقي في الأعالي، شعرت بغرامك النابع من مقلتيك، وأحسست بك تناديني كي يكتب الزمان قصة عشق ملاك لبشر، فنزلت سريعاً إلى الأرض، لم أنتبه إلى الأشجار الضخمة لأن نظراتي كانت مشغولة بعينيك البراقتين، فتكسّر جناحي وسقطُ في أحضانك، نظرت إلي ببرود ولمحت نظرة عينيك ذابلة دون بريق الحب الذي كان يشع منها. رميتني في قاع النسيان وعدت تبحث في السماء عن ملاك بأجنحة يطير.

كل الطرق التي سلكتها أعادتني إلى نفسي، وكل الأوهام التي عشتها أيقظتني في لحظة فراق، فأدركت حينها أن كل الطريق التي أمضيتها معك وسأمضيها ستوصلني إلى مفترق طرق ولن توصلني إلى نهايته، فدربنا قد كتب عليه في البداية أن نهايته فراق طويل لا لقاء بعده، عدتُ

أدراجي إلى ذاتي، استطعت عبور جسور الوحدة وأنا أتتبع خطواتي على رمال الخيبة.

دخلت حياتي بصدفة من القدر، رحبت بك على طريقتي وقدمت لك الحب بسلال من ورود.

حملتني إلى عالم الأحلام، حملتك إلى عالم الخيال، علمتني الحب والهيام، علمتك الوفاء والإخلاص.

حولت ليلي إلى نهار.

حولت ظلام فؤادك إلى ضياء.

وبعد كل هذا الصبر لم تنسَ الوفاء وأضحيتُ مع الأيام قلبك الذي تعشق به وأصبحت عيني التي أرى بهما.

رافقني في دربي المظلم ولا تفارقني، ارفق بما تبقى مني، فأنا فقيرة الحب دونك ولا أمل من درب أنت لستَ رفيق فيه.

لنمشي معاً يداً بيد ولا تفلتها فأقع منك في هوّة الألم، اجعلني أهوى في الهوى وامسح عبرات عبرت على الخدين وارتسمت.

أحبّك يا رفيقي وصديقي ونديمي وصاحبي وجليسي وسميري وخلّي وأنيسي ونجيّ وصفيّ وقريني.

حاول التجاوز لكن كانت ريحة الخبز القديمة تعيده إلى الخطوات الأولى، حاول النهوض لكن كان صوت المذياع المنبعث من عنده جاره الأصم يعيده إلى سنوات شقاوته. أغمض عينيه واتكأ على حافة جراحه وتنفّس بصعوبة ثم بحث بعينيه عن أملٍ كان قد تسلل عبر شقوق كهفه، ولكنّ الظلام أعمى عينيه.

تناهى إلى ذاكرته غرامه الأول وقبلته الأولى وطفله الأول، لقد كانت جميع البدايات مرضية.

فما الذي حصل ليصل إلى ما هو عليه الآن؟

حاول الصراخ ولكنه كان قد نسي كيف بكون الانهيار.

كتبت له في رسالتها الأخيرة "إذا جاء الغد وغدر بي فلم أكن فيه انتبه إلى ذاتك جيدا" نظرت إلى عبراتها التي انسكبت على الكلمات كيف أحالتها إلى مستنقع من الحبر الأزرق. مزقت الورقة بعد تنهيدة طويلة ومسحت عبراتها، ثم كتبت له "أنا بانتظارك، حين تحتاج إلى الحب فلن أكون سوى حبيبتك، حين تمرض فأنا طبيبتك، حين تتألم أنا أمك، حين تحتاج لتسرد لي عما يؤلم قلبك فأنا رفيقتك، باختصار أنا هي أنت" غلفتها ووضعت من عطرها وأبقتها في خزانتها لحين تساندها الحياة وتدبر لهما موعداً على رصيفها يوماً.

لا أحبذ الاستثنائية، فلنكن بسطاء، مثلاً دعنا نلتقي في مدينة مزدحمة بأناس غرباء، لا يهمهم أمرنا، نركض في شوارعها ونرتمي على أرصفتها ضاحكين، لنلتقي على شاطئ كثيف الرمال، قليل الأصداف، أو مثلاً تعال نلتقي في حكايا الجدات، نلعب في طيات كتاب ونختبئ في لوحة باهتة على جدارّ قديم، تعال لنلتقي.

ثم نظرت إلى أصابع يديها وقالت "لقد تسرب من بين أصابعي ولم أشعر بذلك" وبكت بعد أن شعرت بعجز لا يوصلها إلى بر الأمان الذي كان تتوق إليه.

نظر إلى الأدوية جميعها وقال في سره "دواءي هو عناقها، فهي الداء والدواء، هي البلسم لجراح قلبي وضماد نزيف الدم في الشرايين" ثم سار ببطء ورمى الأدوية في سلة المهملات، ركض إليها مسرعاً ليخبرها

بأدوية الطبيب الكثيرة حين التقاها على ضفاف الحياة وحيدة تحت شجرة الأمل. عانقها هامساً لها بحبه الشديد، سألته عما حدث له عند الطبيب، تأملها قليلاً، قبّلها قائلاً لها "قبلة كل ساعتين ستشفى من كل داء يأكل خلايا جسدك، هكذا قال الطبيب.

لن أحاول هذه المرة أبداً، فأنا استنفذتُ جميع الطاقات لدي ولم يعد لدي قدرة على الابتسامة، تلك الحركة والتي أحاول بها أن أدعي القوة ترهقني أكثر، فلم يعد لدي القدرة لفعل أي شيء يتطلب جهداً نفسياً صغيراً، لا تحاول إنارة ما أطفأه الزمن فيّ لأن الريح حين تهبّ ستطفأني وتطفأك معي.

شاقها شوقها إليه، فهربت من نومها لتلقاه في عراء الأحلام.

شُقّ عليه حين رآها تبحث عنه في دجى الغرام، هرول إليها، عانقها وأسمعها من الكلام ما تهواه، فرقصت عارية القدمين على جرحيهما، ثم بكت وندبت حظهما. اقترب منها، لمس كتفها، مسح دمعتها، اعتذر لها.

كانت اعتذارات مقتضبة، ثمّ قبل جبينها وغادر دائرتها.

نادته بأن الشوق يغلي في العروق، ولكنه ابتعد أميالاً. تمنت الاختفاء في هذه اللحظة، لأنها لا تريد الاستيقاظ على واقع هو ليس فيه.

كانت تحب من الورد أصفره، ومع أنه كان يهديها الكثير من الورود الحمراء إلا أنها كانت شاكرة لطفه، ومرّت بها سنين الحبّ سريعاً، وحين حان موعد الفراق أهداها وردة صفراء، لقد كانت وردة جميلة، أسعدتها ورسمت على فمها ابتسامة ناصعة وحين سألته عن السبب.

قال لها " لقد كان حبّاً حزيناً" لقد كان فراقه أشبه بالموت البطيء.
احتضرت روحي وحدها وذبلت وردته في يدي ولم تعد إلى دياري وروده الحمراء.

على حافة بيت مهجور في ظلمة الليل جلست انتظرك.

في مقعد متهالك في محطة قطارات قديمة جلست أحصي الوجوه العابرة دون رؤيتك بينهم.

في غابة عميقة جلست تحت شجراتها أستريح من عتمة الليل، سمعت حينها كل الأصوات إلا صوتك.

في ليلة طويلة صاخبة بحفلات أناس لا أعرفهم حلمت فيها بكل شيء ولم تمر أنت بمنامي.

وفي الضحى وتحت شجرة الزيزفون غاب عني كل شيء وصورتك لم تغب.

كانت خيبتها أقسى من خيبة شمعة ذهبية أضاءت غرفة أعمى، أطفأت نفسها لتضيء عتمته وفي النهاية ما أهلكها سوى الخيط الذي كانت تحسبه نجاة فأحرق نفسه وأحرقها معه.

اتركني في انطفائي كما أنا، لا تسعى لإضاءتي كي لا تتهور وتحرقني، اتركني كما أنا ولا تحرق ما بقي فيّ بحجة أنك تضيء عتمتي.

وأتساءل مَاذا أعطَاني حُبك سوى خَيبة الأمل.

سوى الاستيقاظ في موعد رسالتك اليومية عند الثالثة فجراً لأتفقد هاتفي.

ومن ثم ألعن نفسي المئة بعد الألف أن رقمي ما عاد في حوزتك، ورقمك أضحى من المحرمات، مجرد النظر إليه جريمة لا تغتفر.

دائماً الخيال يكون صادقاً، لأنه يخرج من شعور الوحدة والهروب من واقع لا نرتضيه.

جميعنا يهرب إلى عالم آخر، يقتطع التذكرة بشغف ويسافر إلى دنيا جديدة، لا ألم فيها شوارعها، ولا فقرٌ على أرصفتها.

وما أقسى حين توقظنا الدنيا بصفعة تجعلنا ندرك بأن الأحلام باتت أكبر من حجمنا، وأن لها مقاس لا يناسبنا.

كبرنا على صفعات الحياة ولم نستوعب الدرس جيداً، فما إن تحطّ طائرة الخيال على أرضنا حتى نقتطع تذكرة جديدة ونهرب، فتعيدنا الحياة كما اعتادت قبل سنين خلت.

لا هي فهمت بأن تدعنا وشأننا، ولا نحن وعينا الدرس جيداً فنعرف بأن الأحلام كبيرة جداً، ولن نطالها.

ألا ترى يا صديقي بأن العالم ينهار حولنا ومازلتُ ألتقطُ الصور وحيدة، وإلى الآن لم تجمعني صورة واحدة معك.

هذا العالم يتقدّم ولم نلتقِ صدفة في مطارٍ قديم، ولم يجمعنا القدر في معرضٍ لحكايات الحب القديمة.

هذا العالم يستمر بالمعجزات ولم يعطنا معجزة تجمع شملنا، كالتقاء عابر بميناء صغير، تلتقي سفننا ولا تغادرنا الدهشة.

هذا العالم يستمرّ في إبهار الجميع، لكنه فشل عن مدّ يد العون لنا، وفشل في تدبير موعدّ لنا في محطة القطار.

أخبرها أنه نار فلا تقترب، وابتعد عنها كثيراً، لكنها طارت إليه كفراشة لا ترى وهج ناره، ظنته نور سيضيئ عتمة لياليها، اقتربت أكثر ورقصت فوق نيرانه، سطع توهجه والتمعت عيناه وأحرقها بقلب بارد وهو ينفث سيجارته فوق جثة حبها وهيامها.

كانت أسوأ ليلة تلك الليلة، مظلمة، باردة وشاحبة، كانت أول ليلة تنامها بعد فقدانه، أغمضت عينيها بعد بكاء طويل ونحيب استمر لساعات انتهت طاقتها به فنامت أخيرا.

ثم استيقظت وهي لا تعلم كيف نامت.

اعتقدت في البداية أن كل شيء، كل شيء كان كابوساً مرعباً، ثم اكتشفت بعد أن وجدت هاتفها بحوارها صامتاً أنه لم يكن كذلك وأن الحلم في الواقع حقيقة.

لم تكن يوماً المحطة الأولى ولا الأخيرة، لذلك سأتجاوزك كما يتجاوز الخريف أوراقه المتساقطة منه، سأسقطك من قلبي ولن أندم على هواك يوماً، كنت شعلة أنارت دربي وأحرقتني في منتصفه، وتركتني حائرة هائمة في صحراء الغرام عن ولهٍ كنت صاحبه. أخبرتني مرّة بأنك راحلٌ ولن تعود إلى ديارٍ سكنتُها، ضحكتُ حينها وأخبرتك بأنك لن تكون سوى طائر مهاجر، أتاني في حرٍ وفي مللٍ، لم أخبرك حينها بأنك تركتني في صقيعٍ وفي ألم.

أرجوك يا من هواه القلب مرّة لا تعد، لأنك ستراني في محطة أخرى وغيرك في انتظاري.

نظرت إلى عينيه وتمنت لو تحدثه باشتياقها إليه، بكت وهي تحدثه بشعورها نحوه، وقفت أمامه وبدأت تحدثه وتحدثه، في حين بقي صامتاً، يتأمل لهيب الحب في عينيها وود لو يخبرها بحبه ولكن هيهات أن تتكلم الصور.

حين غادرها، غادرها بصمت، حتى وقع أقدامه لم يكن لها أثر على الرمل الأبيض، وكأنه فرد جناحيه وطار بعيداً عن عشّها ليحط الرحال في عشّ آخر.

أدركت حينها أن لا أمل في عودته، فمن رحل بصمت لن يعود ومن رحل بوداع سيعود بالتأكيد.

تمنت لو أنه وقف ثانية واحدة يودعها بنظراته ولكنه كان خائف من التقاء العيون الساكنة حينها لن يرحل أبداً، وهذا ما كان ليحدث.

هذا المساء مختلف يا صديقي.

هذا المساء ستكون لي وحدي، أستنشق عبير غرامك وأرسم مستقبلا لأيامنا.

هذا المساء ستسمعني قبل أن أتكلم، سأسهر معك سهرة شوق وحب وحنان، سهرة يشهدها القمر وحديثا يردد بين النجوم.

استطاعت بعد تعب سنوات أن تسرق من الحياة لحظة فرح، هربت بها وخبّأتها في جيب بنطالها، وظلت تركض دون توقّف خشية أن يراها أحدهم ويوسمها باللصة طوال عمرها، حار عقلها أين يخبّئها؟ كان

خوفها من افتضاح أمرها كبيراً لذلك لم تشعر بالفرحة التي احتضنتها بين جوانحها. ظلّت أياماً على هذه الحالة، كلّما حاولت أن تحمل فرحتها وتطير بها عالياً تخاف أن يراها أحدهم وتعود الحياة لتسلبها منها. وظلّت محتفظة بها عن العيون، فلا هي أظهرتها وسُعدت بها ولا تركتها للحياة فارتاح بالها.

وإن قتلتَ حلمي، سارعتُ برسم أحلام أخرى، أكبر من أوهامك، وإن حاولتَ جاهداَ كسر أملي، فالله سيحيي في قلبي آمالاً عظيمة.

فلا تراهن بتدميري، لأن حياتي تسير كما أخطط لها أنا، لا كما تحلم أنت.

هادئة هي رغم الفوضى التي بداخلها، تسعى جاهدة إلى ترميم أحزانهم وتترك ندوبها ظاهرة لها وتخفيها عنهم، في ضحكتها رياحين الورد وفي

قلبها جحيم التساؤلات، تقف حائرة في وجه الأمل، تطلب منه عوناً وتبتسم له وكأنه سيطهّرها من رماد الخيبة.

وفي نهاية ليلة أكتوبر الباردة يهرب منها الجميع ليتركوها وحدها، تحتضن مخاوفها وألمها وخيباتها وتبكي طعناتهم لها.

لقد استنزفت بالكامل، نفدت طاقتي بمقدرتي على امتلاك حب شخص جديد/ فأهبه كل شيء ويمضي هكذا بلا مقدمات، قلبي لم يعد يحتمل خيبة جديدة تضاف إلى مجمل خيباته.

كان القدر بي رحيماً هذه المرّة، إذ أبدع في الانتقام منك بطريقة ملئت قلبي سروراً وغبطة.

لم أعد أسأل ما فعل الزمن بك، يكفي أنه أعادك إليّ مرّات عدة ترتجي الحبّ الذي كان، وقفتَ كالغرباء تعصر دمعيك ألماً وتعتذر اعتذارات لا تليق بشموخك.

أما أنا فابتسمتُ لك، ابتسامة تليق بكرمي وأدرتُ لك ظهري، تركتك وحيداً كما فعلتها معي ذات ليلة كانونية باردة.

حينها ضحكتَ أنت وبكيتُ أنا.

واليوم تبكي أنت وأشاركك البكاء ذاته.

كان قليلا ما ينظر إلى وجهه في المرآة، وفي كل مرة يلمح دموعاً غزيرة من عينيه ولكن في المرآة فقط، بينما عينيه في الحقيقة ساكنة هادئة، لا يرى الدموع ولا يشعر بها تنساب على وجنتيه، تنساب بغزارة كشلال غزير المياه يتدفق بلا وجهة محددة.

في منتصف ليلٍ ما، أراد تأمل دموع وجهه في المرآة، لكن الوجه أخافه، كان وجهه مريع لم يألفه من قبل، وجه شبح حزين، قد جفت عبراته فبدا جافاً كفرع شجرة مقطوع منذ قرون.

هرب إلى ذاته، تقوقع على سريره، إلى أين يهرب من وجهه وكل الجدران عكست صورته عليها، في تلك اللحظة بكى كثيراً ولكن دون دموع لأن الدموع كانت قد انسكبت بغزارة من تلك العيون النازفة في المرآة.

قالوا في الصبا (شدة العشق) وأنا قد وصلت إلى شدة الصبا، ليس بعدها درجة أخرى، فهل أوفيك حقك وتدرك كم أنا متيمة بقلبك، كما أنت موله ومدله بروحي، فاعذرني إن اختطفتك ساعة واحدة فيها سبعون دقيقة. أقبلك عشرون قبلة وأحتضنك عام فيه ثلاثة عشر شهراً وأعانقك عناقاً أقيدك فيه بقيد من نار الصبابة قد صنع، فأنا أحتاجك

عمراً وما بعد العمر سنينا لا تحصى.،. فهل تقبل بعقد من الحب يجمعنا؟ نكتبه على ورق من الوفاء، بمداد من البقاء.

في ليلة سمر جلسا، جذبها إليه فهربت منه لتنظر وحدها إلى السماء حيث أغرتها النجوم المشعة، وأغرتها أكثر تلك النجمة الكبيرة.

تركته وحيداً على رصيف الحب جالس، وبدأت بالصعود إلى تلك النجمة، لم تكن تعلم أنها تصعد على جثة حبه وهيامه، أغرتها النجوم فأنستها العهود.

وحين قطفتها وحملتها بيديها الاثنتين هوت إلى أديم الأرض من حيث بدأت، فلم تره وإنما رأت جثة الحب وحدها بانتظارها.

حين سألوني السؤال الأصعب، اختزلت جميع الإجابات بكلمة واحدة "هي أنت" فبدأت تنهار الأسئلة عنك ولم أفكر بالإجابات إلا بعد أن نطقها قلبي، فتشتُ في جيوب الحبّ باحثة عن صورك الكثيرة، ولكن العقل احتدم مع القلب في صراع وسرقها ليختزنها ويحفظها عمراً لا ينقضي. وبعد أن انتهيت منهم وجدتُ القلوب جميعها تغزل اسمك وتناديني كي أبقى معهم أحدّثهم عن حبيبٍ لا يكرره الزمن.

عبرت أيامك ببطء شديد فثقبت قلبي، وتركتني في حطام أوهامي أبكيك، أتيتني زائراً ورحلت مستعمراً، حاولت سرقت القلب فلم تفلح، وهددت أنه لسواك لن يكون، ثقبته عمداً ووليت هارباً، تارك لي أوهام عشتها، وسعادة ملكتها، تركت لي أيام هشة، ودموع متحجرة وقلب لن يرتوي بحب جديد.

في ظلمة الخيال مشيت حافية القدمين أسأل عنك بصمت طرقات لا تصل إليك، أجابتني بصمت كاد يبتلعني، لم أجد لصمتي سوى صدى يتردد في أذني يكاد يفجّرها لأتحسس مواضع قلبي فاكتشفت أنه ينحرق بصمت.

كتبتك رواية فكنت بطلها، لأجلك تفننت في رسم الخرائط، بعثرت مدنها ومحوت بحارها ومزقت أنهارها، محوت كل شيء فيها ورسمتك في قلب مدينتي بدون حدود وقيود، استطعت إلغاء كل شيء في الوجود لأجلك، استطعت تقريب مدننا، فألغيت ما يسمى بالمسافات ومحوت الحدود الفاصلة بيننا، أضحت أجمل بكثير وأنت تراقب انتهاء اللوحة ليتحقق حلم السنين، فليتنا نعيش على خريطة من ورق نحذف الحدود متى نشاء ونلغي فكرة المسافات.

أظن بأن الخريطة ابتكر فكرتها عاشق ولهان، غلبه الشوق ذات ليلة فرسمها دون حدود، أزال البحار والجبال، محى الحدود وقرّب المسافات، الغى ما يسمى بجواز سفر، ورسم العديد من المحبين يتعانقون.

أخبرتني ذات ليلة قمرية بأن الأحلام تتحقق حين نرسمها.

الآن في غرفتي مئات اللوحات، رسمتك في عدة أماكن، زرت مدن الخيال معك واستمتعت برفقتك، لوحاتي باهتة بيضاء لا لون حياة فيها، لا تنطق ولا تبتسم لي، لوحاتي لم تحقق لي المستحيل، ولم تأتني بك، أحتضنها في كل ليلة قمرية لعلها تسحبني نحوها، فأعيش معك في لوحة على الجدار معلقة، نحقق الأماني ونعاند آلام الفراق.

وتبقى أمنيتي الوحيدة أن تختفي لوحاتي التي رسمتها وتأتيني بك واقع أعيشه.

فالأحلام يا عزيزي لم تتحقق حين رسمتها بل زادتك بعداً، وزادت حرقة الفراق تكوي أضلعي.

لم يرهقني فراقك، ولم ينقصم ظهري بسبب بعدك، لم أتألم برحيلك، أكثر ما آلمني خيبة الأمل التي أصابتني وبعدها حل خريف يائس قسم ظهري إلى نصفين، وطلب مني ألا أثق بك مرة أخرى فلا أستطيع أن أعيدك إلى ذات المكان الذي كنت به، ولا أستطيع إعادتك إلى سجلات ذاكرتي مرة أخرى.

كنت أتمنى رؤية وجهك والبكاء على صدرك، لكنك في الساعة الأخيرة لملمت حقائب الحب والغرام ورحلت نحو المستحيل، رست سفنك في ميناء كان أبعد عن ميناءي، ميناء لا تصله سفني، لا تصله أشواقي.

بقدر ما كانت جحيم حرب وطني تمنحني شعوراً يربكني، كنت تهديني دون أن تشعر طمأنينة تغلفني بالأمان، كان قربك ملاذاً آمناً من بطش الحرب، فكنت أهرب منها إليك وكأنك سلام بعد قرون من حرب مستعمرة،

وكأنك هدنة في وسط ملحمة متعبة لا تهدأ ولا تمل.

انتهى فصل كبير من روايتنا وصنعت النهاية وحدك، بكلمة واحدة أقفلت جميع الأبواب ووضعت نقطة في آخر الكتاب.

لم أجد صعوبة في ذلك لأنك سلمتني القلم والمفتاح قبل أن ترحل، كي أعاود أنا فتح باب يوصلني إليك، كي أكتب رواية جديدة بدون أخطاء. ولكنني كنت انتظر إشارة العودة منك وكنتَ تنتظر مني البدء من جديد.

حاولت أن أخيّب ظنهم وأضحك وأغني وأرقص. لكن كان حديثهم يذكّرني بك، عطورهم، حقائبهم، ابتسامتهم، عبثهم، كانوا يحملون لي الألم بحقائب أهديتها أنت لهم.

همسوا بأذني أن أكفكف الدمع الحزين.

فرأيتك تعدو خلفهم وتناديهم وتضحك معهم.

حاولتُ أن أخيب ظنّهم فخيبوا ظنّي ورحلوا معك دوني.

كأنني ليل يطول ويطول وكأنك نهار لا تجيء، كأنني الأربع وعشرون ساعة ووحدك الساعة الخامسة والعشرون، انتظرتك دهراً ورجوت الله عمراً، وأمنيتي في لقاء صغير يتجاوز دمع الحنين، أبكيك كلما رسمتك في لوحة من خيال ليأتيني الواقع بصفعة استيقظ على محو كل شيء، لكنك في قلبي مازلت وستبقى ابنه الوحيد، سأبقى طوال ليلي انتظر الفجر كي يعود فنار الشوق أحالت قلبي إلى رماد من بركان، قلبي الذي أقسمت بالله ألا يدخله إنسان، دخلته أنت بغفلة من عقلي وبرضى من قلبي لأتوجك أميرا مدى الحياة، لتحتل ما بقي مني باسم الحب والغرام.

ولأنها لم تتخابث أبداً لم تنجح في حبك، لأنها نقية كالماء الزلال، قتلت في أضعف رُكن في قلبها، فقلبها هشّ يا صديقي كبيت العنكبوت، لا تصدقها إن قالت لك أنها كالصخرة لا تقع، لا تصدّق ابتسامتها وضحكاتها حين تراك فقلبها يئن بصوت أبكم، كذب ثرثرتها وأخبرها بأن تكف عن وجعها وأنت تضع أصبعك على فمها كي تسكت ضجيج

الآلام المنبعثة من حنجرتها، عانقها وقبل رأسها، ستجدها ترتمي في حضنك تبكي وجع هيامك وقسوة الأيام عليها، ستخبرك حينها بضجيج الآلام الهائجة في قلبها.

كنت كلما قرأت نصاً عابراً لأحدهم أشعر كأنه كتب لكلينا، ويقتحم عزلتي شعور الحنين إليك، أشعر بحروفه وقد كتبت لك وحدك، أخبرني كيف لأحرف الهجاء أن تحتوي دفء قلبك وقشعريرة الحب لدي وتضع الألم على حروفنا التائهة منا والتي يجمعها شخص آخر فيبعثر حنيننا على أرصفة الحب.

رحلت عنك في ليلة قاتمة متشحة كسواد قلبك، شتوية مجنونة كجنون غرورك، مظلمة كظلام عالمك، ناديتني أن أعود إلى متاهاتك كي أتوه في سراديب قسوتك، كي أضيع في عالمك المنمق، فهربت وهربت

ومررت بجانبك دون أن تراني وحتى لم تسمع صدى الصمت النابع من قلبي الصارخ بعتابك.

أنت الوحيد الذي لم يرحل على قدميه وإنما رحلت على نزف قلبي وخرجت من شريان القلب المتيم بك ولم تخرج كما دخلت، بل خرجت ممزقاً فؤادي إلى أشلاء ولم تنظر خلفك خشية أن يتبعك الندم لآخر قطرة عرق تنسكب منك.

في عينيه رأت تفاصيل الحكاية، تحكي العيون ما نخشى البوح به، والتقت العينان تحكي ألماً وجرحاً من الماضي لم يندمل، تلك العينان لو ظلت صامتة ولو أرخت الأهداب قليلاً لكانت هربت من مشاعرها

واستطاعت وأدها، ولكن عيناها باحت له ما بالقلب قد ضمر، باحت له ما عجزت الشفتان عن النطق به.

أشتهي معك شتاء لا ينتهي، ومدفأة تجمعنا وأكواب قهوة نتبادلها، وكتاب واحد تقرأه بصوتك العذب فيفيض قلبي حباً وحناناً.

اشتهي معك عمراً كاملاً من الحب لا خصام فيه.

اشتهي معك واقعاً نتقاسمه معاً وبيتاً نبنيه معاً وهموم نبكيها معاً وطفلا نربيه معاً

اشتهي معك حياة كاملة لا خيبات فيها.

لا وجع فيها.

من بينهم جميعاً تفرّدتَ بالحب وحدك، لم تشبه تكرارهم ولا عبثهم، سلّمتك القلب لأنك وليف الروح، وكم تمنيّتُ عناقك لألتحم بك جسداً بجسد.

فيا صاحب القلب الرحيم ارحم قلباً ذاب بك حباً، ملكك القلب والروح فارأف بامرأة هربت من الجميع واختارتك سكناً لها، فلا تهجرها وكن لها وطن لا يقسو ولا يهجّر الضعيف.

أخبرتني بلقاء لنا سيكون قريباً، من خلف الشاشة تعانقنا، وزرعت لك آلاف الورود الصفراء فمثلك لا يخطو إلا على الورود، صنعت سجادة من رحيق حبنا وفرشتها في دربك، وصنعت لك قناديلا من وله وغرام، وضعتها على الأشجار التي اصطفت تنتظرك، وكل واحدة منها تحلم بلقاء لنا تحت ظلها وهي تعزف لنا سمفونية البقاء، فلا تتأخر عن

موعدنا خشية أن تذبل الورود وتيبس الأشجار ويتألم القلب وتشيخ الروح.

في محطة الانتظار جلست تترقب قدومه، بدأت تعدّ الثواني والدقائق والساعات عساه يعود، سنون انقضت دون وجود أثر له، في ذكرى رحيله عنها باعها للأبد، في ذكرى جراحها النافرة أعلن فرحه الجديد وتركها جسد دون قلب تنتظره في محطة الانتظار.

افترقنا ومازالت ذاكرتي عالقة في تلك اللحظة وتلك المحادثة، افترقنا ومازالت روحي تمني نفسها بلقاء يطول ولا ينتهي، ومازال قلبي يدق للحظات الهوى التي جمعتنا قبل أن تهوى قلوبنا ببئر الجوى ولوعة النهاية.

كأي طفل يدق الباب ويهرب، كنتَ تطرق باب فرحي وتهرب،

أذكر ذات ليلة وقفتُ انتظرك لأمسك بك قبل أن تهرب، حينها عانقتني وهمستَ في أذني بكلام العشق، وغازلتني على كتف الربيع ورسمتَ لي دروب الحب الشهيّة، ولكنك راوغتني وتسللتَ من شقوق أصابعي، لم أستطع الإمساك بك.

وعدتَ لعادتك البغيضة تدقّ باب القلب وتهرب.

مللتُ من أفعالك تلك وتركتك تدقُ كما تشاء ليصلني صوتك راجياً باكياً وانا ابتسم بانتظار أن تكفّ عن حماقاتك.

قال لها بعد أن نفث دخان سيجارته: أراك مبتسمة على الدوام)

قالت بابتسامة خجلة: اعتدت تقديس الوجع، أن أعيش حالة حب معه فأرتاح له وأتأمله وهو يوخز قلبي ويدميه، اعتدت رسم ابتسامة واسعة كقرص الشمس في كل مرة أتألم فيها، أتأمل ألمي وجرحي وأعيش معهم حالة عشق فيرحلون كما رحل من قبلهم.

طوال عمرها معه كانت تسعى لتمنحه السعادة، وكان هو يسعى ليمنحها الألم، فلا هي أفلحت وانتصرت ولا هو رضي بما منحته له.

كان يشعرها بأنها تمنحه أقل وبذلك أحكم سيطرته عليها، لأنها كانت تركض باتجاهه وتعمل ليل نهار كي تكسب وده، وكان هو يركل ما صنعته له بغضب يؤلمها.

ظلت على هذه الحال عدة سنوات حتى وجد من هي أجمل منها، تركها في محيط حزنها ليتلقط أحزان أخرى، لكنها أوقفته وطالبته بأشياء صعبة، آلمته وعذبته ومع ذلك ظل يلهث ورائها طالباً رضاها.

وترك أخرى مازالت تبحث في صحاري الحب عن أمر يسعده ويعيده إليها. ولكنه لن يراها ولن يعود إلى من هجرها بإرادته.

رسائل عديدة كتبها قلمي لك، أخبرتني أنها لم تصلك رسالة واحدة، وأنا التي تفننت في نثر حبي في الرسائل الحمراء، كانت ملونة بجرح قلبي، انتظرك بعد أن كتبت لك موعداً، في محطة قطار قديمة مهجورة إلا من طيور الحب ترفرف في سمائها.

جاءني ساعي البريد يلهث وبيده وردة حمراء، همس في أذني "أحبيني اليوم واقتليني غداً، دعيني أحيا في رسائلك كما يحيا حبك لغيري".

لقد سرق رسائلي وأخفى رسائلك وكان يحلم بحب يجمعنا، وقفتُ عاجزة عن حب كتبته لك وغيرك حلم بها.

أين الضحكات التي كنا نطلقها قديماً فتزلزل الأرض من تحت أقدامنا ونهرول عابثين بالحياة والأقدار؟؟ والآن حين يتسنى لنا الفرح نهرب قروناً منه وأمتارا لا تحصى وكأننا نعرف أنها فخ فلا نقترب منها.

حين كنت في الحاجة إلى الفرح أبكتني الحياة كثيراً وفهمت ذلك متأخرة جداً، والآن لن يفرحني شيء مهما كان عظيماً، لأن الطاقة الكامنة في داخلي قد نفدت ومخزون السعادة نفد سريعاً، ولم يعد لي جلد على إهدار طاقة أخرى، فلتبكني الحياة متى أرادت، لن ابكي ولن أشتكي، سأبتسم ابتسامة مكلومة وأمضي غير آبهة بشيء.

أرأف بحالي يا صديقي، فاليوم أعتنق وحدتي وأعانق صورك، روحي تركتني وغادرت إليك، لم تستطع العيش بعيدة عنك، أوصيك بها وبقلبي الذي جهز نفسه للرحيل إليك، هامساً لي " سامحيني _ فتوأمي في مدينة أخرى " أومأت له بالذهاب بشرط أن يعود بك، ولكنهم في زحمة الحكايا والأساطير المجنونة نسوا أن يعودوا وعاشوا الحب هناك وحدهم

وتركوني جسد بلا قلب وروح انتظر أحدهم أن يعود ويأخذني إلى الحب الذي كان وسيكون.

عصفورة كنت أطير عالياً في سماء الغرام، أبحث عن حبّ التقطه تارة، وتارة أخرى عن ينبوع ماء عذب يطفئ لهيب حر يونيو، فرأيت يدك ممدودة بالعطاء طرت حولك سعيدة. بنيت لي الأعشاش ورسمت لي الآمال، من سبيل حبك ارتويت، من مائدة حنانك نهلت، ولكن أعشاشك مع الأيام باتت أقفاصاً تسجنني فيها، أنظر عالياً إلى السماء أتطلع على عصفور من سراب كان يوماً يطير يبحث عن حب يلتقطه في الأرض الجرداء.

فتحت نافذتي لطير يغني، غرّني غناءه الحزين، تركتُ له النافذة مفتوحة لعله في غرفتي يغنّي، لكنه ما اقترب منها وظل في عليائه

يطرب الآذان، أعجبني أكثر حلو الغناء فاصطدته بأمر من القلب العاشق الحيران، حملتُ له الحبُ والريحان وعلى فراشي أرحته على وسادة من ريش النعام.

لكنه توقف عن الغناء ورسم في الهواء قلباً قد ذاب وشاخ..

انتظرت منه الغناء وهو انتظر مني أن أعيد فتح النوافذ لعله في الأرجاء يحلّق ويغني ويغرد.

كعصفورة جريحة تقف كل يوم أمام نافذة صغيرة، أطايب الطعام قد وضعت خلفها، تشتهي ما وضع عليها وتحسد ذاك العصفور خلف القفص وهو يتلذذ بها، في حين ينظر إليها بطرف عينيه ويتمنى حرية كحريتها، جناحين يطير بهما إلى آفاق بعيدة، اقتنعت بفكرة السعادة الواهمة التي لم تخلق لها ولن تكون لها، أرادت التحدث عما يؤلمها ولكن مهما تحدثت لن تلقى كلماتها أذن ترحل إليها، فضلت الصمت والموت ألما وقهرا وفي خيالها ذكرى العصفورة الصغيرة التي أرادت الحصول على السعادة فطارت بقوة حتى هشمت الزجاج، نزف دمها،

صرخت وتأوهت، لم يعد بإمكانها الدخول ولا العودة، اكتمل النزيف فأودى بما تبقى من أحلامها.

أسيرة في هواك متيمة، مفاتيح الحب معلقة بسلاسل من أمل، على شجرة من سراب، أعانق ظلك وعمري في غرامك ينقضي، أناشدك بالله أن تحييني، أن تزرع قبلة الحياة فيني، سأبقى في زنزانتك أسيرة راضية بقدري، سعيدة بعجزي، أدعو الله مرارا أن يهبني عمرا كعمر نبي الله نوح كي أحبك فيه وأدعو الله ألا ينقضي لأن الحب مازال ينقصه الكثير كي يكتمل. أحتاج قروناً لا تحصى ودهورا كثيرة أعانقك فيها فقط كعناق طفلة تشعر بالحب الأبوي لأول مرة، سأبقى أسيرة في غرامك، راضية بقدر يجمعنا.

أيعقل أن أختم عمري بجرح منك؟

رجل مثلك رفعني إلى سماء الهيام، محال أن يسقطني على أرض الخيبة.

في كل مرّة كنت ترفعني بالحب عالياً أنظر إلى الأسفل وأقيس مسافة ارتطامي بالأرض.

تسألني عن خوفي المفاجئ، عن تلعثمي بالكلام، عن صمتي. بماذا أجيبك وكلّما سلكتُ درباً لأهرب منك، أجدك في آخره، تمد ذراعيك لاحتضان ألمي. نسيت بأن كل الطرق تؤدي إليك وبأنني سأجدك في كل الصور والذكريات والممرات والأزقة.

ومع ذلك أخاف أن أثق يا صديقي، لأنني في هذه اللحظة التي أعلن بها ثقتي بك سترميني من علياء الحب إلى جبّ الهجران. وسأبكي ندماً على ثقتي وقلبي الذي لن يحتمل منك قسوة وإهمال.

ستعود صلبة كما كانت.

وستتجلي الليالي السوداء، ستجلس ذات صباح تحتسي فنجان قهوتها تحت شرفة النور وفي ذهنها ذكريات لأيامها هذه.

ستغلق كتاب الذكريات بعد أن تنتهي من قراءته وعلى شفاهها ابتسامة نصر لأنها انتهت منها دون أن تكسرها أو تقتلها.

علت الابتسامة على شفاهها اكثر حين قرأت مستقبلها في الفنجان ربيعاً مزهراً يرحب بها.

ما بال قلبي دائم الشوق إليك، فكلما وضعت رأسي على الوسادة يداهمني ثقل الحنين.

أراك في كل الشوارع المنسية تحت مطر نوفمبر.

أراك كبغداد حزين ووحيد، قريب من قلبي، بعيد عن عيني.

أكفكف دمع الأسى وأجوب أزقة بغداد بعد منتصف الليل مئة مرة، أجد وجوهاً قد غلبها اليأس والأسى، أجد قلوباً تحمل الحب والخير، أجد الألم قد فاض من دجلة فقسمها إلى قسمين، أبحث عنك في الغرب والشرق ولا أجدك.

أعود إليّ فيعود الشوق يغلبني. أبكيك اشتياقاً.

وأبكي بغداد الوحيدة الأسيرة خلف قضبان الألم والوجع.

عدني أن تكون قوس قزح في غيمتي.

أمسك يدي وعدني أن تكون ربيعاً مزهراً لخريفي

تأمل عيني وعدني وعوداً كثيرة وأهمها أن تكون أملا لآلامي.

جميل أن تجد من يسعدك في حياتك الكئيبة.

وجوده معك يشعرك براحة كبيرة.

يستقبلك بابتسامة ويصافحك بمرح.

يجمع تبعثرك ويرمم انكساراتك.

يشتري لك لحظات الفرح، ويسعى جاهداً إلى اختراع سعادتك.

إن لم تجد هذا الشخص في حياتك، حينها قف أمام المرآة وستجده.

رسمتك في لوحتي منفرداً، تغطّيك حقول التوليب، وتغمرك شمس الظهيرة، رسمتك بشفتين تضحكان، وقلب في حبي غارق، رسمتك كما يليق بك، ولوّنت اللوحة بشتى الألوان.

أنهيتُ لوحتي، علقتها على جداري أمام سريري، لأحيا بنبض حبك، وبدأت بسرد الحكايات الطويلة لك، كنت مستمع صبور، تجيد الإنصات لثرثرتي. وحين أغضب منك أرمي اللوحة على الأرض وأندب حبي لك.

فكنتُ أسمع همساتك تأتيني من خربشات اللوحة "أن انهضي، فهل للحبر لسان؟ هل للجماد ذراعان؟"

أعدتُ لوحتي إلى مكانها، وابتسمت لك كثيراً، لأنك في لوحتي أشهى وأجمل من الحقيقة، يظهر حبك جلياً هنا وفي واقعي يختفي كاختفاء اللون الأسود من لوحتي.

حين شددتَ على يدي وأمسكتها بقوة، أخبرتك إن كان في نيتك أن تفلتها ذات يوم فاطلق سراحها الآن، فلا قدرة لدي للعودة وحيدة.

لكنك غضضتَ الطرف عن استغاثاتي وسحبتني معك إلى سبل الغرام، مشيتُ معك في دروب الحب ننهل منه شهداً وعسلاً.

وفي منتصف الطريق أفلتَ يدي، أخبرتني بأنك تعبتَ من الإمساك بها ولا قدرة لك على المضي معي.

إنها لجريمة كبرى أن تفلت يدي في منتصف الطريق، لا أعرف غير طريقك ولا أستطيع إكمال المسير وحدي، لا أستطيع العودة لأن روحي ستُستهلك.

أجبتني بأنني لستُ ضريرة وسأعرف الطريق وحدي.

وبينما أفكر بخنجر كلماتك كنت قد اختفيتَ لتتركني على ناصية شارع الغرباء أردد اسمك كالمجانين.

قال " لا تقلقي " وأغلق هاتفه، أعادها بدقيقة واحدة إلى وحدتها، مزق رداء الأنس، وعادت لخوفها الليلي، تبكي في صمت خوفها من أشياء كثيرة وتبكي قهراً أنها وحيدة، لن يشعر بخوفها ولن يشعر بألمها، لن يشعر بحبها، ولن تجرؤ على الاتصال به، فقلبه مغلق كهاتفه، هي

تخشى أن تعتاد على غيابه، أن تعتاد الصمت والألم، أن تعتاد النوم وحيدة والبقاء وحيدة فترة أطول.

لا تعاتبني على صمتي ولا تعاتب الأيام على بطئها دون أن تأتيك بي، فقط شاهد ما صنعته أنت بماضينا وحاضرنا وما خططت له لمستقبل لن يكون لكلينا، فقط شاهد ولا تعاتب ولا تتبع خطواتي فهي لن تكون لك بعد الآن.

تتفاجأ لأني تغيرت عليك؟

وكأنك لا تعرف شيئاً، خبئت سري لديك، وحلفتك بالله أن تنساه، كان سري الذي احتفظت به سنين لا تذكر، وحين أقسمت لي على حفظه أعطيتك إياه مع وعود بكتمانه.

وفجأة ودون أي مقدمات أجده قد أصبح سرا مخبئا لدى جميع أفراد البلد.

ديسمبر شهر الخسارات والخيبات، ففي كل سنة أجلس كشمعة صغيرة تنتظر احتراق الخيط الذي وثقت به وأدخلته قلبها، كل سنة أجلس في ذات الركن هادئة وأعدّ على أصابعي خيباتي.

يا الله! خيباتي تجاوزت أصابع يدي وديسمبر لم ينتهِ بعد والخيط في داخلي مازال يمارس معي لعبة الاحتراق، ومازلتُ في صمتي منكسرة أعدّ هزائمي أترقب نهاية الخيط لعل هزائمي تنتهي بانتهائه.

ولأنها أحبته كثيراً جرحها وعاقبها بالهجر والابتعاد، كانت حجته خيانتها لعهدهما، وهي تدرك كما يعرف أنها أحبته بكل جوارحها، لكنها لا

تعرف كيفية التعبير عن حبها الكبير، تخشى رحيله كما تخشى الفهم الخاطئ، ومع ذلك هو يعتقد بأنها لم تصل إلى نشوة الحب، يعنفها دائما على أنها تلميذة غبية تنسى درسها بسرعة، ولم تستطع إلى الآن التعلم من خطأها.

ما بالهم كلما لمحوا نورك سارعوا لإطفائك.

وكلما لمحوا ابتسامتك سارعوا لمحوها.

تألمتَ وما اشتكيتَ.

بكيتَ وما صرختَ.

تعثرت وما وقعتَ.

وجميعهم ينتظر نهايتك، فما إن لمحوا نارك حتى انتشوا فرحاً ورقصوا على جثّة أحلامك.

وحين نهضتَ تحتسي فرح النجاح ركضوا يباركون انتصارك الحزين.
وفي قلبهم أمنيات أن تقع ولا تقف ثانية.

بينما أنت تستند على الجدار وتتمنى لو أنهم سندوك حقاً في أيامٍ لم يكن النجاح حليفك فيها.

كقطة متألمة تبحث عن آلامها كنتُ أبحث عنك، وفي كل مرة تعود القطة جريحة من أثر عراك عنيف مع قطٍ شرس، أعود إلى قوقعتي جريحة القلب والفؤاد، أحاول إخاطة الجرح ولكن الخيط يلتف بعنفٍ حول قلبي، وكأنه يقول لي " تعلمي من جراح قلبك ولا تعاودي الكرة" ولكنني رأيتُ القطة قد عادت إلى ذات المكان، سأنتظرها، إن عادت كما ذهبت سأرجع إليك وأنسى كسر قلبي، ولكن القطة ما عادت، انتظرتها كثيراً وما عادت، فجلستُ في محرابي أتوبُ عن جريمة اقترفها قلبي دون أخذ الإذن من عقلي.

طيلة الأيام الماضية كان يجرحها ويعبث بقلبها، اكتشفت ذلك متأخّرة حين بيّن لها أنها لا شيء في حياته وأنه الأفضل منها، لن تستطيع الوصول إليه أبداً، ومع ذلك كان يعتبرها ملكاً له، ممنوع لغيره الاقتراب منها.

هربت منك إلى طريق مظلم كي لا تراني أمشي وأتعثر خجلة من هروب لا تحكيه الأساطير، انتظرتك في منتصفه لعلك تأتيني نادماً حافياً تركض مسرعاً متعثراً بصدق الحب، كم وددت لو أنك أحرقت الدروب لتضيء لي الطريق!! بدلاً من نحيبك ووقوفك في مكانك تنتظر مني الركوع فأتوسل المغفرة على أخطاء لم أرتكبها، لن أفعلها بل سأمضي في دربي المعتم ولن أنتظر منك أبداً أن تضيء لي الدروب لأنك مهما حاولت جاهداً الركض باتجاهي لن تصل إلي.

إلى أين أفرّ من نفسي وكل الطرق تؤدي إليّ؟

أرغب بالهرب إلى سبل لا أزورها، فالتفكير بكل شيء بات يرهق عقلي.

لا أريد مرايا كي لا ألمح بؤس الأيام ولياليها.

لا أريد رؤية وجه أساء لي يوماً وأهداني الألم فبادلته بالدموع.

أرغب بالهروب بعيداً.

إلى مكان لا أفكر فيه.

أخبرته مرة حين تخاصمنا أنني سأقفز من فوق الجسر كي أتخلص من ثورة غضبه.

ضحك حينها بملء فيه وقال لي "لن أمنعك، ولكن سأهدم الجسر قبل أن تصلي إليه"

لا تعزف على وتر الضحية فلستَ بمظلوم ولست بظالمة، لا تعزف على أوتار لا تمت لك بصلة واعترف بخطئك ولا تتوهم بأنك كنت حكيماً وكنتُ الطاغية، لا تظن أبداً أنك الصحيح وكل ما عداك أخطاء لا متناهية.

أسير بصبر سلحفاة لعلي أصل إلى مرادي، أمشي ببطء وكأنني على موعد مع إحدى الخسارات، وحين تعبتُ من السير الطويل، رأيتُ الأرض تحفر لي درباً جميلاً، مشيتُ فيه على أمل النجاة من هذه الفجوات المرعبة التي اقترب من حافتها، ولكن القدر سارع بسحبي إلى

جانب الحياة، الجانب المشرق من كل حكاية، فتحققت نبوءة النجاح وكأنني لم أخسر يوماً.

خبأتك بين جفني وأغمضت عيني عليك كحلم جميل أخشى الاستيقاظ منه.

ولكنك كعادتك هربت إلى عيون لا تراك وتركتني وحدي أستيقظ على أوهامك المؤلمة على حدائقك الملتهبة والتي أحرقتها في قلبي حين أعلنت الرحيل.

تملك في قاموسها أبجدية مختلفة، عجزت عن كتابتها أنامل الشعراء، وحارت في معانيها كل القلوب، بها من المشاعر ما يكفي لإحياء كل

النفوس الميتة، ولها من المعجبين الكثير، وحين تعود إلى غرفتها تقفل بابها جيداً كي لا يتسرب الحزن عبر الشقوق وتلعن وحدتها.

أتاها طارق في جنح الليل، طرق فؤادها المتعب طرقتين متتاليتين وهمس في أذنها بكلمات من الهوى، فهوى قلبها ببئر حبه بغفلة من عقلها الشريد، استوطن في خلاياها واستعمر فؤادها فكسرها بغفلة من عقلها أيضاً حين كان القلب يناديه أن يكف عن اقتلاع ما بقي مخضراً في ربيع قلبها، أصابه الصمم وهاج على قلبها اقتلعه ورماه تحت قدميه، وأشار لها بالسكوت، لأن ذنبها كبير، ما كان لها أن تفتح باب قلبها لطارق في الليل يطرقه.

علمتني الحب والغرام وأمسكت بيدي إلى تلال الهوى وهناك عانقتني وأخبرتني بأن بعدي عنك حرام وخطيئة لا تغتفر. رسمتَ لي العشق والهيام وأنسيتني الفراق والهجران.

حتى جاءت تلك الساعة الآثمة ووقفتُ فوق تلال الشوق أحتضن صورتك وبعض الذكريات.

لم تعلمني الانتظار على عتبة الألم. لم تخبرني بأن الراحل لن يعود ولم تخبرني كيف أبدد أوقات الانتظار.

كان فراقك أكبر الآثام التي لن أغفرها لك أبداً.

تباعدت بيننا الساعات، وأحدثت الفرقة مسافات هائلة من عبرات الذكريات، لكنني رأيتك نبراساً في نهاية الطريق تحاول مجابهة الحنين؟ تكافح ثورات الشوق، وتكبتُ الآه وتمسح الدموع، تأهبتُ لاستقبالك وهيأت دموع الفرح واستعددت لاحتضان أيامك، لكنك تقهقرت في الدقيقة الرابعة والعشرون، تراجعت خطوات إلى الوراء حتى ارتميت في

بئر الخيبات، طال انتظاري في طريقك وما كنت أعلم بأن رُّوحي فارقتني لتذهب إليك لتحتضنك بعيداً عن جسدي المسجى بحكايات الخذلان.

أيمكن للقمر أن يواصل زحفه إلى ريعان شبابنا، فلا يهرب الحب منا كما تهرب الأيام.

تبقى الأيام شاهدة على زماننا فيتوقف ساعات وساعات وهو يمهلنا ألا نتأخر في المجيء إلى ساحة العشق، ينصحنا أن ننتظر وننتظر ولكن إلى متى؟

فغروب العمر واقف لنا يستمع لقصصنا وينذرنا أن لا وقت لكلينا باقتراف أخطاء البعد مرة أخرى.

حين نظرت إلى انعكاس وجهي في المرآة لمحت وجهاً لا يشبهني كان متعباً أرهقته الحياة كثيراً، حاولت إزالة ذاك القناع عن وجهي كي أعود إلى ما كنته قبل سنوات من الآن، كان لابد أن أقوم بجهد كبير لإزالته وهو الدخول إلى أعماق ذاتي وأصل إلى خبايا نفسي ولكني سمعت نبض قلبك وهمس روحك يناديني، أرهفت السمع ونسيت أنك رحلت مع الماضي فأنى لك أن تعود.

لا تحرق الحقول لتضيء لي الدروب، أحتاج يدك تمسك راحة يدي وبيدك الأخرى مشعلا لا ينطفئ.

لا تقدم الوعود على أطباق من ذهب، فالزمن كفيل بكسرها، نفذ تلك الوعود لتكون أنت الذهب وبريقه.

نظرتُ إليها فم أعرفها، تغيّرت كثيراً عمّا كانت عليه، بدت أكثر بؤساً. مددتُ يدي لعلّي أمسح دمعة نزلت على الوجنتين. لكنها أمسكت بياقتي وحاولت سحبي إلى عالمها. حاولتُ تخليص نفسي منها بالصراخ، لكنها سرقت صرخاتي مني ورأيتني بكماء لا تتكلم، ذرفتُ العبرات في ساحتها، فأقبلت إلي تعانقني وتخبرني بأنني الآن بتّ شبيهتها ولا فرق بيننا. ففي النهاية هذه المرآة الحمقاء لا تعكس سوى آهاتي.

أنت هناك وأنا هنا وبيننا مدن لا تنتهي وأحلام لا تنطفئ

بيننا بحار لا نعرف العوم فيها، بيننا حدود، بيننا جنود،

بيننا حب لا ينتهي.

بيننا آلاف الذكريات التي ستلد في لحظة من لحظات الحياة.

بيننا كلام لم ينتهي ووعود لن تنتهي.

فمتى سيصبح لنا موعدا ها هنا

في ارض لم تطأها قدماك، أو تدبر لنا الأرض موعدا هناك في أرض لم تطأها قدماي.

حينها سيعانقنا الحب للأبد وتنفذ الوعود وتلغى الحدود.

أرتبت أوراقك لسفر لا أراك فيه؟

أم جهزت حقيبتك وحملت بداخلها ذكريات لعيدنا ستكون.

سنرتحل سويا إلى مكانين لا يجمعانا.

قلبينا فقط من توحدا وسافرا فوق الغيوم، يطلب منك قلبي أن تعود إلي ويسرقني قلبك من بين الجميع ليسافر بي وحدي فأراك مازلت تجهز الحقيبة، تضع بداخلها ما أحب وأشتهي، كأنني سأكون معك برحلتك

القصيرة، أجلس بجوارك أتأمل لمعة الحب في عينيك، انحرق بنار أشواقك، انتثر رمادا على خديك، أمسح عنهما دمعة الحزن في كلتيهما وتذيبني أكثر وأكثر عبراتك المتيمة الهامسة بحنيني وأشواقي.

مشيت معك أميالاً لا تحصى، نسيت أني حافية القدمين.

لم انتبه إلى الأشواك وقد دخلت إلى قدمي بغفلة مني بينما كنت أحصي خطواتك السريعة، انتبهت أخيراً لذلك بعد أن أسرعت أنت الخطا وتفرعت إلى درب ضيق ومظلم بالكاد يتسع لكلينا، وقفت حائرة أنظر إلى قدمي التي أدماها الشوك والحصى تارة، وتارة أخرى إلى دربك المعوج وتارة أنظر خلفي، أخبرني كيف لي الرجوع وحدي دون أن تكون بحوزتي لا أنت ولا خارطة العودة كي تدلني على الطريق.

لا تلمس يدي مرة ثانية، فما عادت يدك تؤتمن ولا عاد قلبي يثق بذرة حب في قلبك.

اتركها وسأستعين بيدي الأخرى كي أنهض وأنفض عني غبار الخيبة.

لا تمسك يدي كي لا تفلتها في منتصف الطريق وتبكي لأنها انزلقت منك عنوة، وترسل في منتصف الليل رسائل باردة لا تدفئ قلبي الذبيح بك.

اترك يدي ولا تقبلها وتخبرني بأنها اليد التي ستبقى معك العمر بأكملها.

لا تنس يا صديقي بأنها ذات اليد التي أفلتها ذات مرة وأنت تخبرني بأنك مللت منها.

فلا تلمسها لأنني لم أعد أثق بنصف يدٍ ونصف رجل.

انتظرتك كثيراً، انتظرت عودتك إلى ما كنا عليه، لكنك واصلت الزحف بعيداً واختبأت خلف الحكايات الوهمية والكبرياء الآثم، هربت بعيداً ولم تواجه آثامك، بل ظللت تهرب حتى ما عدت تعرف لم أنت دائم الهرب،

كلما اقتربت خطوة تبتعد خطوات وتتهمني بكل هذا ومازلت تواصل الزحف بعيداً عني وترفع راية بيضاء وكأنك ضحية مظلومة لا يرأف بحالها أحد، واجه مخاوفك وواجه نفسك ولا تكن كالفأر الجبان تختبئ خلف جدار الحكايات.

غرق الجميع في نوبة من البكاء بعد أن جاءهم خبره، وبلحظة أعلن الجميع الحداد.

وحدها من كانت تقف صامتة، تحاول استيعاب الصدمة،

رغم ما أحدثه رحيله في قلبها من حرائق وأعاصير جارفة اقتلعت كل ما في قلبها من حياة، إلا أنها جلست قبالتهم تبتسم لهم كي تنسيهم الهم والألم.

لم تسلم من شرهم، سرعان ما اتهموها بالشماتة لموته، والفرح لحزنهم.

ونسوا جميعهم أنه كان الأوكسجين لرئتيها والحياة لقلبها والدم لجسدها.

في زحمة من العمر التقيتك، نسجت معك أجمل الحكايات، عشت معك تفاصيل الأشياء وطقوسها، حلمنا معا حين كنا نعد النجوم بغد أفضل.

ولكن حكايتي انتهت بمأساة، وحكايتك أنجبت حب جديد.

لم يكن عناقك حاراً كما عهدّته، كان فيه من الفظاظة ما يفتّت قلبي، أخبرتك "تعال نتقاسم العاطفة معاً" تعال لأمنحك نوري لنضيء القلوب المّمتلئة وجداً وحنيناً، ولكن لم تكن قسمتك عادلة البتّة، فقد منحّتني ظلاماً أعماني وسرقت نور وجداني، كان فيك صلابة وغلظة لم أعهدها بك من قبل ولم أعهدك ناقض للعهد، حانثُ به، انتظرّتك بتلهّفٍ لعلً

غيثُ ندمك يهطل في قلبك، ولكن غيث الندم انسكب مدراراً كوابلٍ من رصاص فتّت قلبي يؤنّبني على انتظارك في صبابة وحنين والفؤاد يبكي حنين الانتظار.

لوحدها جالسة تحتسي جرعة من قهوة النسيان، تتصفح دفتر ماضيها. دقائق صغيرة كانت كافية لتشعل نار الحنين في صدرها وتشتاق لمن فرق الزمان بينهما وختم علاقتهما بكلمة النصيب.

تمنت عودة تلك الأيام ولكن أنّ لمن رحل أن يعود، أناس كثر مروا كعابري سبيل في حياتها.

من اشترتهم فباعوها ومن باعتهم حين اشتروها، ضحك وسعادة، دموع وفرح، ألم وفراغ، كلها أشياء ظلت حبيسة الدفتر، لكن ذكرياتها امتدت إلى قعر فنجانها فأشعلت جمرة قلبها وأبقتها في عزلتها.

أخبرها ذات مرة بغرور رجل بأنه كالأرض يدور حوله الأفلاك.

ابتسمت بسخرية وأجابته بسخرية "إذن تحمل أن تكون مداساً للأقدام".

ومن وقتها وهو يلهث راكضاً ورائها ويدور حولها ليبتغي رضاها، وهي كالشمس، بعيدة إلى الحد الذي لا يصلها، قريبة إلى الحد الذي كلّما اقترب أكثر أحرقته بوهجها.

لا تغلق الباب خلفي لعلك تحتاج إلى فتحه بعد رحيلي، سيستغرق وقتاً وأنت تحاول فتحه بينما خطواتي في الزمان أصبحت بعيدة، ستركض وتفكر في درب خطوت به خطواتي، لن تجد آثارها لأن الزمن كفيل بمسحها، تتراءى لك الدروب كمتاهة صعبة الاجتياز، تجلس على حافة الذكريات وحيداً حالماً بعودتي إليك، وخطواتي أصبحت بعيدة كل البعد عنك.

للأسف يا صديقي، طريقي ليس فيه خط للرجوع، ما إن مشيت فيه لن يسعني التوقف ولا العودة.

أجلس وديسمبر على ضوء شمعة وهمية، في غرفة لا تصلح للسكن، أجلس وإياه نعدّ الخسارات، هو يعدّ خساراته وأنا أعدّ خيباتي، ونفشل في العد ويمتلئ الدفتر بخطوط متعرّجة، يمدّ يديه ليدفئني فأجد خطوط التعب مرسومة بوضوح.

أحاول منحه طمأنينة بأن الأمور ستتحسن، ويحاول تدفئة جليد قلبي.

وفي النهاية ككل عام نفشل في العد بعد المئة، ثم أمزق الدفتر وأشعل شمعة أخرى بديلة عن تلك التي أحرقها ألمنا. تفرح الشمعة لأننا لم نصل بعد وبذلك ستبقى مشتعلة. بينما أنا وديسمبر نفكر "هل سنجلس السنة القادمة ونعد الانتصارات أم الخسارات؟"

تحقّقت نصف أحلامي هذا العام ولكنك وحّدك بقيت الحلم الّذي صعب الوصول إليهِ، بيّننا عام بأكمله حزين على شتاءٍ لم يعد لنا ذكريات فيه، ففي شتاء باردٍ بعيدٍ جداً، صقيعه يشبه صقيع هذا الشتاء كنّت معي وكنّا في الحبّ غارقين حدّ الثّمالة، ولكنّك بعُدتَ كثيرٍ كعامٍ كامل بين سنتين يفصل بينهما الواحد والثّلاثين من ديسمبر، وقريبُ كقرب يناير من آخر يومٍ من سنة فائتة. وبقيتَ وحدك في سراديب الذاكرة طيفٌ يبوح في شغفٍ ويروي حكاية الحّلم المؤجّل في دهاليز العمر.

كشذا الورد وأريجه كنت، عبقت رائحتك المكان بأكمله، شممتها وتنهدت شوقاً وولها، بحثت عنك في المكان عينه لعلي احظى بشرف رؤياك، لكنك كنت كالنجم بعيد الملمس، قريب إلى حد استطيع احتضانك دون أن أراك، اشتقت إليك، عام كامل مر في يوم واحد، يوم كامل كان كافيا للقضاء على مهجة روحي، فكيف لو تعددت الأيام دون لقياك؟ وكيف لو استمرت الساعات تدق وتدق دون أن يدق قلبي حين يراك؟ قلبي

الذي سيبقى إلى أبد الآبدين يهمس باسمك وعقلي سيبقى يعمل ليل نهار على أمل لقاء لنا سيكون، وخيالي _ آه من خيالي _ سيبقى يسافر إلى أرضك لعله يأتي بك يوما ما لتنير مكاني المظلم.

كيف تنساه وشمس الفرح بعد غيابه لم تعد تشرق في قلبها.

أيقظتني رسالتك بعد منتصف الليل تخبرني بحزنك على يتمك الجديد،

هوت عبرتين من رسالتك المقتضبة وحاولت أن أصرخ في تلك الرسالة الغبية لأخبرها أن حزني كان مختلف حين رحلت بعد أن خبئت عمري كله في قلبك، رحلت بعدما ملئت حقائبك بأيامي، رحلت بعد أن وضعت سعادتي في عينيك، دون وداع رحلت، عن أي حزن تتحدث.

أغلقت هاتفي وأغمضت عيني كي لا تخيفني عبراتي وتوسدت ذكرياتنا وبكيت.

حينما كنت بانتظارك وكنت لاهيا عني.

كان حينها نظري مثبت على شاشة هاتفي منتظرة رسالة منك، ولكن الرسائل هطلت إلى هاتفي من صديقات لا أذكرهم ونسيت وجودهن في حياتي بعدما أدمنتك.

حتى شركات الهاتف بعثت لي ذاك اليوم بعشر رسائل تنبهني فيها أن أشحن بطاقتي، ولم يخلُ الأمر من رسائل لشركات مجهولة تقدم عروضا شتى.

وحدها رسالتك التي انتظرتها أنا لم تأتِ.

أتراها غيرت عنوانها؟ أم باتت لا تعترف بزمن الرسائل؟

وفي نهاية العام أقول لك:

"لا تركنّي على رفٍّ عتيق ولا ترمني في أرضٍ لا تثمر بحبّك، خذني معك إلى عامٍ قادمٍ كوردةٍ ذابلة تخبّئها في جيب قميصك، لا تتركّني أقف متجمدة هذا العام وتنسى أن تحملني معك إلى عامٍ آخر، لا تنظر لي وكأنّني شخص لا ترغب بالاستمراريّة معه، فأنا دمعتك النازفة وبسمتك الحانية، عد بي إلى أعوامٍ خلت وفتّش في دروب الأعوام عن طفلة كانت بين يديك ضحكة السّنين وتألّق الأعوام، حينها ستغلّفني كهدية الميلاد لأحظى برفٍّ صغيرٍ في قلبك على مدى سنين أخرى لا نفترق فيها.

تزوجيه كاتبا ولا تخذليه، سيحلق بك في فضاء الأحلام، سيرسمك شعراً، نثراً، خاطرة، فصلاً كاملاً في رواية.

سيجيد رسم الفرح في قلبك، سيجيد رسم الحب في عينيك، سيتفنن في اختراع الحكايات المدهشة.

سيأمر القلم ليكتب عنك أروع ما سطره العرب من غزل.

سيمنحك دور الأميرة في رواياته، ستكونين بطلته.

وهو بطل حكاياته كلها والتي محورها نظرة من عينيك.

أحبيه كاتباً ولكن إياك أن تخذليه.

تراودها الذكرى بين الحين والحين.

من امتزجت روحها بروحه، طيف خياله جاء من البعيد فقط ليزيل وحدتها ويخفف وحشتها.

حاولت الابتعاد والهروب إلى ذاتها، لكنها فوجئت به قابع هناك ينتظر حبها.

وكأن الطرق تعاندني وتزرع على أرضها نيراناً لتحرقني.

أبتعد عنها مرغمة وأبحث عن درب صغير يوصلني إليك، فأجدها وقد أُغلقت بمئة مفتاح ومفتاح، أعاود البحث والعمر يمضي بي إلى حافة النهاية فلا أنا وصلتك وأنت في الهجر محترف بارع، لا أنت أتيتني وأنا انتظرتك أمام طريق مازالت أرضه تحترق، فلم تأت لتطفئ النيران، وإنما فضلت الابتعاد وغلبنا العمر معاً وانطفئت نيران الأشواق ولم تعد.

لا أرغب في التعوّد.

في كلّ مرّة يخبرني بأنني مع الأيام سأعتاد، أشعر وكأنّ للجملة حبل يلتفّ حول عنقي يخنقني، أصرخ فيه بأن الأمر يصبح غاية في الصعوبة حين أفكّر بأنه سيصبح عادة روتينية لدي.

يا صديقي لا أريد التعوّد، أريد الصراخ والبكاء، ثم النوم لساعات طويلة، ثم النوم لأيام ليست بقصيرة، وبعدها تنحلّ كل العقد ولا أكن قد اعتدتُ على أمر يقلقني.

وبعدها يأتيني هو ويقف على بعد خمسة أمتار ويقول بكل بساطة: ستعتادين.

أنهار باكية ولا يأتي ولا يقترب وإنما يغادر كغيره.

وإلى الآن لم أعتد غيابه إذ مرّ على تلك الليلة مئات الخيبات ومازلتُ واقفة عند ساعة الفراق.

كل ما فيك يحيي ذاكرتي ويعيد نبض الحب الذي كان في قلبي، تعيدك ذاكرتي إلى فصول الحب الأولى، وأبقى أستعيد ما حدث وما لم يحدث وما تمنيناه معا أن يحدث، ولم أنس ضحكات الحب ودموعه، أحلام رسمناها على صفحات لم نلوثها ولم يكن القدر هو المخطئ ولكننا من أخطأنا واتهمنا القدر والحظ والنصيب كي نقنع أنفسنا بأننا فعلنا

الصواب ولم نفعل سوى أخطاء متعاقبة فصلت ما بيننا وأنهت الحب الذي كان.

أغلب رسائل الانتحار تمثل ما نشعر به، حين نقرأها نجدها تمثل واقعنا ومع ذلك يرعبنا صمودنا ونخشى الانهيار بلحظة مفاجئة، يرعبنا أن نبقى نمثل الصمود في حين نتآكل من الداخل، نقرأ تلك الرسائل بقلب خال وعقل لا يفكر إلا بالخلاص، نمزقها ونرميها عشاء للنيران الهائجة ونكتب أخرى وأخرى ونحن مازلنا في اللاشعور نبحث عن بصيص أمل كي ننجو، ولكن من يدري؟ ربما سيأتي يوما وينفد الورق وقتها وساعتها نكون قد هوينا دون أن يلمحنا أحد ونكون قد نفذّنا ما كنا نقرأ له، ونكون قد نفدنا كما ينفد الورق، لن تطالب بها النيران، تلك الرسالة الأخيرة ستبقى على الطاولة تحكي أعواماً من الصمود الوهمي، بينما النيران تخبو وتخبو رويدا رويدا.

كان اختيارك في البداية خاطئاً من أعقد الطرق التي أوغلتُ فيها، حاولت الابتعاد عن دربك كي لا أتوه أكثر فيه، مشيت دون وعي مني، دون إرادة وكأنني تحت تأثير مخدّر.

غصت فيه، غرقت أكثر لأجدك بعيدا كل البعد عني.

والآن وجدت محاولتي لكرهك لهي أشد الطرق وأصعبها.

أتلو رسائلك على قلبي ثلاث مرات في اليوم، قبل الأكل وبعده، قبل النوم وعند الاستيقاظ، أعيدها في ذاكرتي عشرات المرات لعشرة أيام فأحفظها غيباً جاهدة ألا أنساها كتلميذة كسولة تخشى هروب الدرس من ذاكرتها فتعاقب على إهمالها، ثم أعيد في ذاكرتي محاولة ألا اغفل حرفا

واحدا صدر من قلبك إلى قلبي فأجتهد بذلك سعيدة بكل حرف نطقت به لأجلي.

تباعدت بيننا الساعات، وأحدثت الفرقة مسافات هائلة من عبرات الذكريات، لكنني رأيتك نبراساً في نهاية الطريق تحاول مجابهة الحنين؟ تكافح ثوران الشوق، وتكبتُ الآه وتمسح الدموع، تأهبتُ لاستقبالك وهيأت دموع الفرح واستعددت لاحتضان أيامك، لكنك تقهقرت في الدقيقة الرابعة والعشرون، تراجعت خطوات إلى الوراء حتى ارتميت في بئر الخيبات، طال انتظاري في طريقك وما كنت أعلم بأن رُوحي فارقتني لتذهب إليك لتحتضنك بعيداً عن جسدي المسجى بحكايات الخذلان.

هناك من لا يستحق دموعك التي تذرفها، يحاول بشتى الطرق التخلص منك، يهرب دوما من طريقك، تحاول جاهدا أن يسامحك على كلمة بدرت منك بقصد أو بدون، يزرع فيك السهم تلو الآخر، ويسقيك الإهانة الكأس تلو الكأس.

فلتسرق منه مفتاح الأحجية فتذرفه من قلبك دون أن يرق لك جفن، ولا تحزن عليه فمثله لا يستحقك.

أكتب لي رسالة أخيرة، أضعها في جيب معطفي وأردد كالببغاء كلماتها، أكتب لي قبل أن يصبح الحبر باهظ الثمن ولا تجد للورق سبيل، أكتب كلمات الوله التي اختزنها قلبك وغفلتَ عن ذكرها. أكتب قبل أن تضيّع دفتر العناوين ولا تجد لبيتي عنوان.

فأنتَ وأنا نعرف ما بيننا من كلماتِ نخشى أن تضيع في زحمة الأكاذيب والعلاقات الواهمة.

أكتب لي لأبادلك الرسائل، رسالة برسالة قبل أن ينتهي هذا العالم وقبل أن يصبح الحبر مادة سامة للجميع.

كان يفتّش في جيوب المارة عن حلمٍ كان له. يسأل كلّ غريب يمرّ أمامه عن حكاية قديمة كان هو بطلها.

مرّت الأيام تطوي بعضها وهو يبحث عن ذات الحلم حتى وجده مغلّفاً بالورد على باب داره. نظر إليه نظرة انكسار، فلم يعد لديه طاقة لتحقيقه والعمر فرّ منه سريعاً.

مرّ بجانب حلمه مروراً عابراً ولم يلتفت إليه.

دخل داره وأغلق على ذاته واتكأ على مرفق آلامه وسكتَ الوجع أخيراً.

حينما نقف في منتصف الدائرة وكل ما فيها أوجاع نحاول قتل ذاتنا بالانتحار، نحن لا ننوي الموت بل نخشاه كثيراً، ولكن كل ما أردناه الهروب بعد أن نصل إلى مرحلة العجز وتخرج الأمور عن السيطرة، لو كنا نملك خاصية الاختفاء ريثما تختفي خيوط الدائرة، لو بمقدورنا التغيب عن الوعي لعام أو أكثر فتمر الأيام بسرعة وتنتهي حينها سنخرج من الدائرة وكأنها لم تكن موجودة، كل ما أردناه الهروب من أنفسنا والابتعاد عنها قليلاً، ولكن لا أحد كان ينوي الموت.

لم يكن الوداع يليق بهما أبداً، في كل مرة يهددها بالرحيل تهرب روحه منه إليها، تتعانق الأرواح، فيقف مبهوتاً، ضائعاً منه شيء ما يفتش عنه، يبحث عن شيء أضاعه ولا يدري ما هو، ينظر إلى الخلف فيجد الأرواح ما زالت تتعانق، ممسكة ببعضها بقوة رافضة الإفلات، ولكن جسدها مازال شاحباً، عيناه على عينيها مثبتتان، وعبراتها قد تحجرت في مكمنها، ينسى جراحه وقسوته ويهرول إليها فيعانقها وبذلك تعود

الروح إلى مكانها الذي خرجت منه، ويمسك بيديها ويسيران في درب ستكون لهما فيه ذكريات تحفر ولا تتنسى.

كان يواصل زحفه إليه بأمل، وكانت هي تبتعد عنه بألم. اقترب هو وابتعدت هي.

بنت لأجله الحواجز ولأجلها هدّمها.

توسلت إليه الابتعاد، فتوسّل الاقتراب.

وظلا هكذا لا هي اقتربت مخافة أن يهجرها في ليلة ماطرة، ولا هو ابتعد عنها مخافة أن يأكله الشوق والحنين إليها.

في قلبي خبأتك، بمكان لا يصله إنسان، وزرعت في دربك آلاف الورود كي تخطو عليها وحدك، وأمرت كل عصفور على أغصان أحلامي أن يغرد لك بصوته الشجي ويهمس لك بما عجز قلبي عن الإفصاح لك.

خبأتك في قلبي سنين لا تعد، لم ادع فيضان النسيان أن يصلك ولم أسمح للعقبات أن تغتالك من قلبي، فهنيئا لك بمنزلتك هنا والتي لم يطأها إنسان من قبلك.

كانت بعيدة إلى الحد الذي حاصرت جسدي في القضبان كي أحاول فقط الإمساك بها.

أغراني رحيقها وداعب أنفي نسيمها، تمايلت مع شمس الضحى ليشرق الأمل في قلبي.

أتراها جاءتني زائرة أم طبيبة؟ داوت روحي قلبي قبل أن تغيب.

تستحق فعلا أن أحصر جسدي كله في القضبان الحديدية كي ألثم خدها.. وبالفعل نجحت في الخروج بعد أن كسرت القيود لأراها ذابلة من غير عبير تتلألأ بنور شمس وهمي.

أريد مزيداً من الحياة كي نلتقي، أريد أن تقترب سنين اللقاء وتبتعد سنين الفراق. لا أريد ليوم يأتي يبعدك عني، بل أرغب بيوم يأتيني بك.

كصدفة في ليلة صيفية أراقب السماء وأنت تراقبني. في مكتبة كبيرة وتقع يدك على نفس الكتاب الذي أحمله. في طريق خالٍ من أنفاس البشر، مليء بصخب الحب. أنا وأنت ولا شيء ثالثنا سوى الحب المسيطر على قلبينا.

تستّعر النّار في المدّفأة، تناديني على عجلٍ كيّ أتدثّر بمعطف الشّتاء، أهرب منها لأتأمّل مطر ديسمبر من النّافذة الجّريحة، لا أشعر بنسمات البرّد تأتيني من ثقب النّافذة الصغير، لأنّ شتاء قلّبي وبرودته أكثر صقيعاً، ألمّلم رسائلي على عجلٍ لأنّها بلا معطفٍ وتشعر ببرودة هذا الطقس.

أخبّئها في جيب معطفٍ قديم لتستدّفئ بذكرياتٍ قديمةٍ كانت وقد ولّت، بيّنما أنا أستحضر وأنا جالسة على كرسيّ أمام المدّفئة ليالٍ قديمةٍ قد حفرها ديسمبر في قلبي وجعاً وأشّعلتها الآن نار المدّفأة المحتدمة.

ما بيننا انقضى، انتهى ، زال إلى لا نهاية، فلا تعبث بفؤادي مجدداً ولا تطرق الباب الذي كسرته عمداً حين هجرته آخر مرة، لا تعبث بالفؤاد حيث كان مسكنك يوما ما، وارحل بهدوء بدون إحداث ضجيج، كي لا

توقظ الأوجاع من غفلتها، واتركها بهدوء كي تموت وكأنها لم تكن في القلب يوما وكأنها لم يكن مستقرها ومكانها.

أعدني إلى قلبك ولا تلفظني مرة أخرى، فقد كان لي فيه كل الحق، بيتي ومسكني، أقمتُ فيه سنيناً لا تعد، وفي النهاية هُجرتُ منه قسراً، طُردتُ في ليلة كانونية مثلجة، أرتجي الدفء من الغرباء.

لم أرد يوماً أن يكون مصيري الطرد من مكان نبتت فيه عواطفي وكبرت.

فيا صاحب القلب الكبير أنا الآن نازحة أبحثُ عن قلب أعيشُ فيه ما مضى من عمر، فأعد فتح باب قلبك لي وأعطني من الأمان الكثير وازرع طمأنينة الحب في الفؤاد.

مولّهة حيرى لا تدري كنه حكايته، فهو دائم التّشويش، يرتبك حين يلمع ليل عينيّها الأسود، فيتشتّت أكثر ويتحوّل إلى ذرّات لا تراها، جميعها تنادي بحبّها، اقتربت منه تريد أن تفهم رجفة يديّه وتشقّق لثّتيّه، فأبعد يديها هامساً في أذنها" لقد نشّت جوارحي من الحنين، أفتعيني القلب الذبيح وترويه جرعة من فيض الدله والوله؟" عانقته العناق الأخيرٍ، وهمست في أذنه "لقد كان حبّك مهيناً وتحمّلت خزيه، فليس بي رغبة لأتابع مع من كان مع الحبّ ذليلاً" أخفى عبرة العّين عنها ومضى يدسّ الحبّ الذي كان في جيب أيامه وكأنّ الذي بينهما قد غيّب عن زمانهما.

كل لفات العالم لم تنصف الحب الذي يدور في ساحتنا، قيدنا وأعمى بصيرتنا، كل رسائلي إليك لم تشرح عمق الحب الذي بداخلي ولن تشرحه، كل لغات العالم ادعت الفشل مقابل حبنا، لم ينصفنا أحد، فحين أكتب إليك أتحول إلى طفلة لا تعرف السير، تحتاجك هدفاً لها كي تركض نحوك وتكبر بين ذراعيك، تتحول إلى تلميذة بليدة لا تفقه

الكتابة، تتحول إلى فتاة بريئة لا تعرف أن تشرح ما في قلبها، فقط تنظر إليك ابتسامة بلهاء لتدرك وحدك حجم حنينها، ولتدرك مقدار حبها، ستبتسم لها فتعطيها جرعات من الأمان والحب، سيسعدها ذلك لأنك فهمتها قبل أن تفهم نفسها.

تغيرت كثيرا عما كانت عليه، لم تعد تبالي بأخطاء الآخرين في حقها، صارت تمسح أخطاءهم بكل سهولة ويسر، تحاول قدر المستطاع ترك ابتسامة صغيرة على شفتيها كي لا يلمحوا كمية الطعنات التي تتلاقاها يوميا.

هيأت نفس وجهزتها عروسا لك، وحدك مالكها وأميرها، وكأنك مسافر إليّ، أطلت الانتظار على عتبة داري، ألوح بيدي للمسافرين ولكنك لم تصل، لم تكن وجهتك أنا، وبقيت منتظرة مجيئك بفارغ الصبر ولكنك لم

تأتي، ستصل إلى بلاد لم تدبر الحياة لنا على أرصفتها موعدا، مكان هو بيتك ووطنك ومازال عالمي المجهول.

وهبتني من الوعود الكثير، منحتني من العهود ما لا يعد، وفي لحظة خاطفة كلمح البصر، ساعة متمردة عن الحياة المعتادة، حيث فتحت عيني ورأيتك قد فارقت جسدي ولكنك لم تفارق روحي، صمت وصدى صوتك يتردد في أذني، اختفيت وبقيت صورتك في عيني مرسومة، رحلت وظلت أنفاسك في قلبي تهمس باسمك، غبت ولم يغب طيفك فما زال بجواري يمزقني.

كانت تتمنى أن يرسل إليها أحدهم رسالة حبّ، مشت في كل الطرق ولم يبتسم لها أحد، تمنّت لو يعانقها إنسان على هذه المجرّة ويمسح دمعها الحزين.

لطالما سخرت ممن انتحر، وأنهى قصّته، واليوم هي تشعر برغبة شديدة بذلك، استطاعت أن تتفهم شعورهم.

وحين فعلت ذلك وقفزت من أعلى ذاك الجسر، تسارع الكلّ، وجميعهم تمنوا لو عانقوها العناق الأخير، لو ابتسم في وجهها إنسان ما كانت فعلتها.

الكتابة روحٌ تنبض، فلا يمكن أن تقول بأنك قد توقّفت عنها وأنّك رميت بأوراقك وجعلتها عشاء للنيران، الكتابة ستعيدك إليها حين تشتاقها، فأنا وإياها حبيبين نتخاصم في النهار لنتعانق في الليل، أشكو لها ضعفي وتشكو لي ألمها، لا يمكن لإنسان أن يقول أنا أهوى الكتابة إذا كانت الكتابة لا تسكنه، لا تقل ذلك وأنت لا تملك إحساسك بالقلم والورقة، كعلاقة الريشة بالفنان علاقة القلم بالكاتب أقوى، فعش إحساسك واكتب لأنك تعشق لغة الحرف ولا تكتب كي يقال عنك بأنك إنسان مثقفٌ،

لأنك ستبقى حينها تكتب لك ولأناس اختاروا أن يمجدوا كتاباتك لشخصك الكريم.

خطوة اتخاذ القرار هي الأصعب، أصعب من الخطوة التي أخطوها بعجلة من أمري ، الحيرة بحر عميق المياه تغرقني ولا أمواج السعادة تسعفني، أتخبط كالثملة بين أمواجها وخيوط المشكلة تتعقد في عقلي ولا سبيل لحل العقد إلا بعد أن ترميني تلك الأمواج على يابسة متشققة جافة، أتأمل لوحدي الدرب الذي سلكته بعد مناقشات عظيمة بين عقلي وقلبي ومازال بحر الحيرة يناديني كي أغوص به أكثر وجزيرة الندم تكاد تنخر أضلعي.

أشكر كل الذين أشعلوا شمعة في دربك المظلم، وأحبوك حين كنت تبكي الغربة، احتضنوا خيبتك وقلّموا أظافر الوحشة في غرفتك، فبتَ ترتجي

الدفء في أحضانهم، ولا تبغي سواهم أنيساً. فكن لهم سعادة كما كانوا لك طوق نجاة.

لم يكن يعلم أحد بجراح قلبها النازفة، عميٌ هم عن آلامها وعن صمتها الذي كاد يفتك بهم وهم حيارى يتساءلون طيلة النهار والليل عن سبب جمودها الذي فاق يناير قسوة، عن جمرة البؤس في عينيها.

ومن بينهم كان هو أقرب الناس إليها، فيما مضى عاهدها على البقاء بقربها مهما كانت الظروف سيئة، وعدها بعدم التخلي عنها، بعدم الابتعاد، لكنه الآن واحد منهم، يتساءل كالأبله معهم دون أن يقترب منها ويفهم سر صمتها.

أزهرني يا صديقي، ولا تتركّني أعيش قحط بعدك، فأعوامي دونك قد تجاوزت جدب الحياة ولا غيرك يرويني حلّوها، تكفّفتُ عنهم كلّهم وأخبرتهم بأني عطشى لدلهٍ يعيد إليّ صبابة الأمس، تركوني في يباس لن تغفرها لهم سنين عمري التي قضيتها في جفاف عاطفيّ أعانق وحدتي، أنتظرك وغيمة رمادية تهطل على أرضي فتسقيني نبيذ كلفك.

انتهينا وانتهت أحاديث الجوى التي ملأنا الأفئدة بها، فلا تعد للحب تواقا ولا تعد لقلبي مشتاقا، لا تغازلني على الملأ ولا تنظر لعيني المحترقتين باللهفة فتبكيهما جمرة الحب الذي كان ولوعة الفراق، ارحل متناسياً بهجة الحب التي كانت ولا تعد إلى قلب حرقته ونثرت رماده في عاصفة رمادية تأتي في العمر مرة، فلا مجال لجلوسك بقلب مليء برماد من نار حبك قد اشتعل.

كان بوسعه أن يسقطها حين رآها تعرج وبيدها عكازٍ من خيبات، لكنه ركض إليها وأمسك بيدها، ابتسمت، ضحك لها، شعرت بالأمان.

كان بإمكانه أن يعنّفها ولكنه تلمّس حرارة كلماته وسكت فابتسم لها وضحكت، فشعرت بالأمان.

كان باستطاعته حين رآها تخبو أن يدوس عليها بقدمه فتنطفئ، لكنه أعاد إشعالها، فأنارت حياته وابتسمت له، فضحك هو، فشعر كلاهما بأمان الحب.

كانت مشغولة في الكتابة إلى أحدهم، كانت غاضبة، حزينة، مستاءة، تجمهر الدمع في مقلتيها وكانت تكتب رسالة، مر القطار سريعاً ولم ينتظرها، ثم جاء قطاران ولم ينتظراها، وهي تكتب وتكفكف دمعها، كانت سريعة في الكتابة أسرع من القطار الرابع الذي وقف ينتظرها، حدّق فيها راكبٌ بألم. ونظر إليها مستفهماً راكبٌ آخر، تبسّم لها رجلٌ عجوز وتمنى أن تبادله الابتسامة.

انتظرها القطار كثيراً وحين يأس منها أكمل المسير وهي مازالت تكتب وتكفكف دمعها.

وبعد أن أغلق كل أبوابه في وجهها، وزرع في دربه أشواك لا حصر، وقفت وحيدة تتأمل الحصى والأشواك وقالت بابتسامة دامعة " سأختفي من قلبك للأبد، وسأهبك حالية كاملة خالية من نبضي" وسارت في اتجاه آخر، حافية القدمين كانت، فلم تشتكِ من طول الطريق ولم تتألم، لأنها كانت تشعر بوخز في يسار صدرها يمزق أحلامها، هو الذي أقسم لها آلاف المرات أن تبقى معه طوال العمر، طال العمر ولم يبقيا معاً.

هو الذي حلف أغلظ الأيمان أن لا حياة دونها، استطاع أن يكمل الحياة دونها.

يجلس كل يوم تحت ظل شجرة البرتقال، ليس له انتماء لمكان أو زمان، إحساسه بتعاقب الفصول دفين، شعوره بالليل والنهار قد انطفئ، كل ما يراه هو تحصيل حاصل، يمتع ناظريه فقط دون قلبه، وكأن قلبه أصبح خاويا لا يشعر به أبداً، لا تربطه بالواقع أي صلة. يشعر بالغربة كلما حاول الارتماء في حضن الطبيعة، حتى عبراته تمردت عليه وتحجرت في مقلتيه، لا يملك أيّ بشريّ يقف بجانبه ويواسيه على ما هو فيه، لذلك يبقى تحت الشجرة يحاول فهم طلاسم حياته قبل أن تحوله إلى جثة هامدة دون حياة فتعطي دروسا للآخرين عنه.

أتيتَ من رحم الزّمان صديقاً صادقاً، وأقسمّت أغلظ الأيمان أن لغيّري لن تكون، صحبتني في ليالي الأنّس حتّى أسميّتك سميري ومؤّنسي وخلّي الودود، ناجيتكَ في ليالٍ وحيدة امتلأت بك، لكنّك كنت سريع العطّب وأسرعت بالعدو تلاحق ركّب الفتيات الحائرات المنّشغلات بأوهام العشّاق، أسرعت إليهنّ تستميل إليك أجملهنّ، تستعطف أرقّهن، وتناشدُ أذكاهنّ، وتركتني في عراء الليالي أنشدُ شعراً عن الخديعة

والخداع، بعد أن حملت رياح الشوّق مؤامرتك وكشفت عن دسيستك التي أضّمرتها في جبّ المكر.

وبعدها هرولتَ إليّ تشحذ حظوة من غفران، ومددتَ إليّ يداً فقيرة تطالب بحصّتك من المغّفرة.

من بين الرماد عدتُ والقلب من فراقك بات حجرٌ ساكن لا يثور، رأيتَ الرماد يغطيني فهرعتَ إلى جانبٍ بعيد لا أراك فيه وخبأتَ عيونا كانت تراني بريقا لا ينطفئ، واليوم تراني رمادا لا يلملم، انتظرتك هناك بين دقة القلب وعبرة العيون لعلك تأتي فتمسح الرماد بنظرة من القلب لا تخون وتتوق لحب جديد، لكنك هربتَ ثم اختبأتَ وأبعدت قلبك عن حريق أشعلته أنتَ وغضضت البصر عن رماده وكأن شيئا لم يكن، لن تشعر به فقد كان قلبي أنا وليس قلبك.

أحتاجك دون أربعينك، فقد ملّت الأحلام مني وهرول الخيال بعيداً عن أرضي، هل لك أن تهبني مئة قلب كي احتفظ بالمشاعر الهائلة والتي تحدثني عليك في الدقيقة سبعون مرة؟ أرجوك امنحني عيوناً كثيرة كي أراك أينما اتجهت وسافرت، أيدي كثيرة كي أعانقك ولا أتركك حتى يلتحم الجسد بالجسد، ارجل كثيرة كي أهرب إليك وجناحين كي أطير إلى أرضك، أتكفيك هلوسات الهيام هذه؟ أم أعقد صلحاً مع الخيال كي أسافر إلى أرضك؟

في مثل هذا الوقت، وفي مثل هذا الشتاء الحزين.

في ليلة طويلة وباردة كنتُ أبحث فيها عن شيء أشغل به وقتي.

رسمتك على باب غرفتي خمس مرات وفي السادسة قُطعت الكهرباء. حاورتك عشرات المرات، ولكن القلق داهمني وأرسل لي إشارات حزن وأبعدني عن طيفك.

تلحفتُ بمعطفك لعلي أستدفئ به وأهرب من زمهرير يناير، لكنه أخذني بجولة ليست قصيرة، إلى ذكرياتنا معاً، وعاد قلق عودتك ينهش مخالبه في ذاكرتي.

والكهرباء لم تعد، والبرد لم يذهب، والذكريات حاضرة، ولا أعرف عنك شيئاً.

افترقا، بعد أن رفضت القبيلة ارتباطهما، قالوا له بأنها ستكون لغيره، أعلى منه منزلة، هرب دون وداعها، وهناك على ضريح الحب ترك لها وردة صفراء نضرة برسالة صغيرة فيها أمنيات كثيرة بالسعادة، عانقتها وأقسمت أن لغيره لن تكون، هددت الجميع بأنهم سيفقدوها إن أجبروا على زواج لا ترغبه.

وكل يوم تحمل وردتها الصفراء وتتجه إلى ضريح الحب وهو مقعد خشبي متهالك تحت شجرة صفصاف معمّرة.

مرت السنون وشاخت الأشجار ويبست، وتعاقبت الفصول ترسم الحب والفراق على مقعدهما. ومضى نصف قرن من العذاب حين عاد. بيده وردة صفراء تحكي حكاية حبهما، مشى على عكازه ينظر في كل الاتجاهات لعله يراها، ولكنه حين وصل وجد وردة صفراء ذابلة وبها رسالة صغيرة " انتظرتك كثيراً " كانت وردته قد ذبلت هي الأخرى وضع الاثنتان على ضريح الحب ومضى. الآن أدرك مدى عشقها للورد الأصفر والذي يرمز للحب الحزين.

كانت مخطئة حين صدقته، إذ حاول إقناعها أن في القلب غرفة واحدة فقط لا تستوعب غيره، فهو الحب والحلم والحياة، وإذا رحل ستظلم الدنيا وتتوقف ساعات الزمان بعده، ولكن حين فجعت برحيله وجدت أن في القلب غرف كثيرة تتسع لغيره، الأفضل منه والأجمل والأكمل، ولكن في النهاية جميعهم يرحلون ويتركون كل أثر كان جميلا يوما.

يا دياري القديمة ويا وطني الآمن، يا خزانة ملابسي، ويا كل أشيائي الصغيرة.

يا من أحبّني في زحام أيامه، واختارني واقعاً لأحلامه.

أحبّك لأنك تشبه وطني حين كان آمناً، تشبه بيتي القديم، تشبه تفاصيل الحب الصغيرة.

تشبه ذكريات حارتي حين كان الأمان سيّدها.

تشبه أولاد حارتنا هين يتضاحكون ويرقصون ويلعبون.

باختصار.. تشبه السعادة في عيون لاجئ عاد إلى أمان وطنه.

كان صادقاً في مشاعره، حملها وهرب بها، دعاها للحب الأول وللقبلة الأولى وللرقصة الأولى.

كان كريماً في مشاعره، فارتجفت رجفة الحب الأول وابتسمت وهي تتعلّم الرقص منه واحمرت وجنتيها خجلاً حين قبّلها.

حملها إلى أعلى ما في الغرام وهناك سقاها من نبيذ الحب ما سقاها، وارتوت وطالبت بالمزيد، أعطاها ما رغبت به وأكثر أيضاً.

حتى تعب وملّ من كثرة ما قدم لها، فابتعد عنها، لم تشعر بابتعاده لأنها كانت غارقة في غيمة من العشق.

وفجأة استيقظت الأميرة ولم تجد لخطواته صدى، كان قد ابتعد كثيراً، فما عادت تلمح له ظلاً ولا عادت تكتب إليه شعراً.

عادت إلى قومها منكسرة ذليلة، فوجدته على أعتابها يراقص أخرى ماهرة في الرقص والضحكات.

كان دائما يحمل السعادة في جيبه وكلّما شعر بأنها ليست بخير، كان يهديها واحدة. لذلك هي كانت دائما حزينة لأنها اعتادت على أن يمدّها بالسعادة.

ومع ذلك كانت تخاف أن يفرغ جيوبه من السعادة، مع أنه كان يطمئنها على الدوام إلا أنها باتت أكثر حزناً حتى وإن أمدّها بالفرح الكثير، كانت تخشى أن تصبح هذه الأيام ذكريات تحنّ لها يوماً.

الحب الذي يأتي من النافذة يهرب مع أول نسمة تهبّ.

فأغلق نافذة قلبك جيّداً كي لا يتسرب إليك وهم الحب.

مهما ابتعدا تجد جذورهما تتعانق، مهما افترقا تجد قلبيهما قد تعانقا.

حاول الجميع التفرقة بينهما في العلن، في السر اجتمعا، هو تكلّم وهي استمعت واستمتعت وتمتّعت بهوى الحب فهوى قلبها وعانقته وافترقا على أملٍ في لقاء قريب. ولم يكتب لهما لقاء. ولكن جذورها إلى الآن تتعانق.

سرقها بعيداً عن أعينهم، جلب لها ما تشتهيه نفسها من ملذّات الحياة، رسم لها الحب وزيّنه لناظريها، وأسمعها العديد من قصائد الغزل، وكلما طالبته بالخروج من سجنه، يوبخها لأنها جاحدة، فالكثيرات على حدّ قوله تتمنى أن تعيش حياتها. لكن هي لم تطالبه بكل هذا، أرادت رفيقاً يأخذها بيده إلى الحب، لا يسجنها باسم الحب ويبعدها عن الحياة.

واختلفنا ومشينا، ثم عدنا، رقصنا، بكينا، تعانقنا، ثم اختلفنا، مسحنا الأرض من ذاكرة علقت بنا ورائحة عطر أدمنّاها، وكلانا مشينا في

دربين مختلفين. ولم نعد، وأمطرت السماء ومحت ذاكرة الأرض فلم تعد تناديا، ولم نعد للمكان مرة أخرى.

كان اختلافنا قاسياً وكنت أقسى من صخرٍ صوان. فلا أنت رجعت ولا أنا رجعت والمسافات بيننا زادت اتساعاً وزاد الشرخ بيننا، والمكان لم يعد يتذكرنا.

مازال الليل يسرق ساعات النوم ويستبدلها بليالي الأرق، يخبئ الهدوء تحت جناحيه ويهديني عوضاً عنها أكواما من ليالي الحنين والشوق، يعطيني السهاد ويأخذ راحتي ويتركني في مهب الرياح أتقلّب ليلاً ونهاراً دون أن يرأف بي فيسعفني بأرق يطول ويمتد فلا يغمض لي جفن.

كان يتصفحها كما يتصفح كتاباً مملاً، يمر على حياتها مرور العابرين، وكم تمنت لو توقف برهة عند صفحة واحدة يقرأها بتمعن، لكان عرفها وما اشتكى منها، لكنه كان يعود ويمر مرور العابرين على صفحات حياتها وما استدعته صفحة واحدة للوقوف عندها، بل كان يراها جذابة من غلافها وعنوانها ومملة ما بين سطورها وفي أوراقها.

أبقني جوار قلبك لأخبرك عن شوق نما وكبر وأنت في غفلة عنه، أبقني بين راحة يديك لأعانق رحيق الورود بين كفيك وأضمك اشتياقاً وحناناً، أبقني بجوار عنقك لألثم أحرف الصبابة والجوى لأحدثك بملايين العبارات عن وجد الحب حين وجدته قد كبر في قلبي، فأسرعتُ إليك لأنضمّ إلى قافلة العاشقين ولأزودك برسائل الغائبين المتيّمين والحيارى الراغبين في عقد صلحٍ مع المسافات.

جميعهم طالبوا بحريتها، حملوا المفتاح إليها، وأعدّوا الحجج والبراهين والأدلة لتخرج من عزلتها، ساقوا لها الأحلام والأوهام، ورسموا في دربها سلال من الأزهار، عاهدوها ألا يمسّها أحزان ولا آلام، وأن يراعي وجودها كل إنسان.

لكنها خشيت على ذاتها منهم، فأغلقت بابها بألف مفتاح ومفتاح. لا هم وصلوا إليها ولا هي صدقت حرفاً مما قالوه.

كانت صديقته الصدوقة ومفتاح حياته، معه فقط ابتسمت وضحكت لأول مرة، تسابقت معه في سرد الحكايات ورسمت له دروب الفرح، ضحكت كثيراً وكثيراً، ومع أنهم حاولوا التفرقة بينهما، كيف لملاك صغير أن يعشق وحشاً، لكنها علمته كيف يصبح إنسان وكيف يغني لها ويفرحها في كل مرّة يراها فيه.

كان إنساناً بصورة وحش، وكان كل ما حولها وحوشاً بصورة إنسان.

في جلستنا الأخيرة لم نستمع لبعض جيداً، لم أعاتبه فهو يعرف بأن العتاب ليس حلاً، ولم يستجدني البقاء، ظل يدخن لفافات تبغه ويتأمل ما حوله ولا يراني، وأنا أتأمله لآخر لحظة، لأحتفظ بصورته في ذاكرتي إلى الأبد، طال صمتنا، ينتظر مني تبديده وأنا أنتظر منه الكلام.

ولكنه لا هو حكى ولا أنا اشتكيت. أنذرنا صاحب المقهى بانتهاء أوقات دوامه. خرجنا معاً ومشينا وأيدينا متعانقتين وقلبينا يبكيان الفراق وانتهينا في آخر الشارع دون أن ننظر نظرة الوداع الأخيرة وكأننا قد جهزنا لهذا الفراق منذ زمن بعيد.

ماذا لو أتيتِ بعد عشرة أعوام ورأيته جالساً على المقعد ذاته ينتظرك؟

كبرتِ أنتِ وكبر هو، والمقعد تهالك من كثرة استعمال المتعبين والعاشقين له.

ماذا لو جلستِ جواره سألت عن أحواله؟ ولكنه أجاب كعجوز مصاب بخيباته عن حياته بأكملها، وحين تهمين بالاستفاضة بالحديث يسألك عن اسمك، هنا وعلى ذات المقعد ينساك ويقسم أنه لم يتعرّف عليك.

تبتسمين رغماً عنك، وتمدين يداً مصافحة وتقولين "لنتعّرف إذاً" يعجبه عفويتك وتعجبين لأمره.

زاد حبك في قلبي كما يزداد عدد أهل الأرض ساعة بساعة، كما نما الشوق بسرعة كما نمت للورود أشواك، كنت أكتب إليك وشوقي يلحّ علي بإكثار الحب في الرسائل، حينها أهديتُ لك بذاراً للشوق كي تزرعها في حديقتك فيكبر حنينك إلي وتتسارع إلى نبض قلب أغرم بك.

ولكنك زرعتها في حديقة أخرى، وتعانقت رسائل الغرام بينكما، وأنا مازلتُ كالبلهاء أكتب للشوق والحنين.

لن يعود إليها، فقد كانت ابتسامته ابتسامة وداع، رغم أنه لم يخبرها بذلك ولكنها قرأت ملامح الفراق على وجهه، لم يظهر عليه أثر الفراق أبداً وإنما شيّع حبهما بابتسامة عذبة رق قلبها له.

لم يعد مع أنه سمع بكاء حروفها، وارتعاش الورق تحت أناملها المرتجفة، فضّل الابتعاد كثيراً وكلّما هزمه الشوق ابتعد أكثر. وكلّما أغرقه الحنين تمسك ببابسة الهجر وهاجر.

كجدار دمشقي عتيق، صامدٌ في وجوه الجميع، حزين ووحيد، يستند إليه كل غريب ويحتضنه كل قريب، وهي كياسمينة دمشقية تتدلى من عليه

وتتودد إليه، تنشر عبيرها في أرجائه، يحتضنه كما يحتضن الغريب جواز سفره، وتتمسك به كما يتمسّك الجندي بآخر ذرة نصر، لا هو يستطيع تركها وقد اعتاد عبيرها، ولا هي تستطيع تركه وقد اعتادته سنداً لا يميل.

حاولتْ جاهدة ألا تبكي أمامهم، ولا حتى مع ذاتها، وإن أوصدت باب غرفتها، فمثلها لا يجب أن تبكي. ولكن أول سؤال صادفها من عابر سبيل عن الطريق، بكت وكأنه يسألها عن حالها وعن ألمها، بكت وحدتها وثقل الأيام والكتف الذي لم يستطع تحملها، بكت أرقها وسهادها. عانقها الغريب، فانهارت باكية وكأنها تعوّض صيامها عن البكاء لسنين عدة. وبعد أن هدأت واستكانت جفف دمعها ورحل عنها وبقيت لوحدها مطمئنة البال سعيدة بالثقل الذي رمته إلى غيرها.

كانت دائماً ما تهرب من حياتها إلى كتاب وتغرق فيه، تنسى نفسها وتنسى مما هربت، ثم تعود لتهرب من نفسها إلى النوم، فتغمض عينيها وكأنها قد غفت فعلاً، ولكنها في الواقع يقتلها التفكير والحنين لأشياء مجهولة،

وبعدها تستيقظ وتهرب من الجميع إلى فيلم تشاهده سبع مراتٍ في الليل ولا تمله لأنها لم تكن معه منذ البداية. تعاود الهروب وكأن حياتها مبنيّة على هذا المبدأ، حتى كرهت عالمها ككل وهربت لأغنية تسمعها في جوف الليل ولكن كلمات تلك الأغنية صدمتها وصفعتها بقوة، فالواقع لم يتغير وهي مازالت في مكانها.

كل الأمور العالقة في رأسها تستيقظ ليلاً وتكبر حتى يزورها أرق لعين، كل الندوب التي زرعوها في جسدها تزهر ياسميناً تطلب الماء لترتوي، حينها تنهار باحثة عن جدار تستند إليه، فمحاولتها إخفاء الحزن يتعبها أكثر من إظهاره. ويزورها الحنين والشوق يضمها وتربت الذكريات على

كتفها، وتسهد الليل بطوله تفكر في كل ما قدمته لهم وفي الخيبات التي أهدوها إياها شاكرين حسن معاملتها لهم.

كان الأمل بقربه يعذبها دوماً، لم يحبها يوماً، بل كان يتعافى بها من قصة حبّ قديمة، لم يرحم رقّتها فأهداها ندوباً لا تبرأ، ومع أنها مازالت صغيرة إلا أنها تحملت لوحدها الحزن والخيبة، وحين عاد إلى ماضيه وتركها وحدها تتعافى بالأيام السريعة والتي كانت أسرع من أن يفهم قلبها ما جرى.

وحين انتصرت انتصارها الحزين وتجاوزته، عاد إليها يبكي حباً آخر ضاع منه.

من بين الرسائل القديمة، كان هناك وعد ببقاء يطول ولا يقصر. كان بين طيات الورق أمل بالحب القديم. مسّدت الورقة قرأت الوعد مرّات كثيرة وفي كلّ مرّة تتذكر ذاك الوعد الذي كان يقطعه كلما لمح خوفها من خسارته.

حتى ملّ من قطع الوعود فغادرها دون أن يلمّح لها. في ذات الرسالة التي منحها ذاك الوعد، في ذات الرسالة حنث الوعد، حين أخبرها بأنها رسالته الأخيرة إليها.

الآن ومع مرور ذكريات الأعوام أمامها لم تنتحب، مزقتها بهدوء، ووقفت قبالة النافذة فتحتها ورمت أشلاء الرسالة.

فليس كل الرسائل وجب تصديقها، وليست كل الوعود حقيقية.

طوال الوقت ينظر لها وهي ترفرف حوله، وتحط على الورد ببراعة، جميلة هي فراشة الحقل، كانت سعيدة والشمس تخلق لها ألواناً من الفرح فتداعبها نسمات ربيعية دافئة، أغرم بها وتاه في عشقها، أراد أن يرسمها

ليخلّدها لوحة في ذكرياته، لكنها كانت ماهرة في الطيران برشاقة لا متناهية، ملّ من انتظارها، حضّر لها فخاً شهياً ودعاها لحضرته، جلست، وقفت، نامت، رسمها في كل أشكالها وغادرها على عجل، أغرمت بريشته، فصار الانتظار صديقها، ولكنه أغرم هو الآخر بلوحته فما عاد يعجبه الأصل ولا للحقل زارها. بينما بقيت هي مكانها تنتظر منه أن يبدأ لوحة جديدة يكملها معها.

وفي ظلِّ الكوارث جميعها التي تعيشها كان حبّه لها يمنعها من الانهيار، وبين زيف مجتمعها وكذب عالمها، كان هو حقيقة ثابتة لا يتخللها شك، وبينما كان الجميع يبتعد، يسعى للبحث عن السعادة، كان هو جوارها يبحث عن ألمها ليمحوه، كان صديقها في زمنٍ لم يعد للصدق مكاناً.

نظرت إلى الغرباء وابتعدت، ضمت يديها إلى قلبها وما اشتكت، فالجرح في قلبها قد تجاوز المئة، صبرت وما أنّت حتى كلّفها ذلك قلباً كاملاً، أعادوه إليها ممزق لا يصلح لحب جديد.

بردت من فرط إهمالهم ولم تنزل من عينيها دمعة واحدة، لقد كان الألم أكبر من البكاء، كلّفها قلبها وروحها. ما إن يبرأ الوجع حتى تسحب الدنيا منها الروح وتمنحها أطنان من الخيبة، وتبقى هي صديقة للشقاء، تتأمل الغرباء وتعود لتضم نفسها، فتذكر ذاتها بأن لا تثق بغريب مجدداً.

كظلٍ حقيقي في يوم مشمس كان يرافقها، كغيمة رمادية يبحث عن أرضٍ مثمرة ليرويها. غابت الشمس والظل لم يغب، أمطرها حباً وغنت لها ولهاً، وعاد يرافقها دون كللٍ أو ملل. لم ينتظر منها أمر ليهرب منها، بل كان يبدد السيئات ويستجلب الحسنات، وظل معها هكذا كظلٍ

في يومٍ مشمس أينما ولّت وجهها وجدته خلفها، أو أمامها يزيل العراقيل من دربها.

بكامل لهفتي ركضتُ اتجاهك، كنتَ سريعاً في العدو، فلم ألحق بك، وعدتُ بخيبة، خاوية حزينة، أفتّش عن حلم سرقته الحياة مني.

وحين عدتَ بوجه طلق، لم ترني، كنت ما أزال في زاوية المقهى أعدّ وعودك الكثيرة بالبقاء.

نظرتَ إلي مطولاً، اقتربت من حافة قلبي، سألتني إن كنت أعرفك.
ابتسمتُ بألم ومشيتُ من خلالك، عبر شرايين قلبك ولم أتمكن من دخوله، فمشيتُ بعيداً عنك، وأنت تردد بأنني شبيهة لذكرى جميلة مرّت في حياتك.

تؤلمها الوحدة، حين تحتاج كتفاً تشكي وجعها وتعبها، لا تجده. يختلق أعذاراً ويبتعد فيبقيها في ساحة الغرباء.

ترعبها حياة الوحدة، بعيدة عن نصفها الآخر.

وجعها إن كان جسداً فهو قابل للعلاج مع الوقت بمضاد حيوي. لكن وجع قلبها وروحها من يعالجه.

يعذبها شعور أنها لتمضية أوقات فراغه فقط، بغض النظر عن مرضها وتعبها ووجعها حتى روحها لم تعد مقبولة لديه.

غادرت كل الأماكن التي أشعرتها بأنها أثقل من ريشة في مهب الريح، هربت من زحامهم حين شعرت بالاختناق.

كانت حين لا يعجبها شيء تهرب ولذلك تفننت في الركض والهرب من كل مكان يشعرها أنها ثقيلة الظل أو لا وجود لها.

كانت تتبخر كفقاعة صابون حين لا تجد ذاتها معهم.

حين أتعبها القدر جلست على حافة رصيف الحياة تفتّش في عيون المارة عن حياة نقية كانت لها، وهذا ما جعلها جذابة في عينيه، اقترب منها وركع قبالتها ونفض عن جسدها غبار الزمن وعانقها العناق الأول، في عينيه رأت أمان العمر الجديد، ابتسمت للمعة الأمل في عينيه. أمسك يديها وجرّها إلى عالمه، وفيه ابتسم لها القدر مرة أخرى فأزاح الغمّة وبنى لها العديد من أبنية الفرح والسعادة، فكان عوض الله جميلٌ لها، وكأنها لم تحزن يوماً ولم تتألم.

نظرت إلى تجاعيد الزمن في وجهها عبر مرآة لا تكذب.

هذه ليست ملامحها، هي تذكر ملامحها جيداً، كانت جميلة وذات ابتسامة لا تقاوم.

بريئة هي من كل هذا الحزن ومن كل هذه الفوضى. تلمّست المرآة مرة أخرى ثم وجهها، كلاهما حقيقيان فالمرآة لم تكذب عليها يوماً، هالات عينيها أضحت ترعب من حولها، مهما وضعت مساحيق لتخبّئ التجاعيد إلا أنها تظهر بين الفينة والأخرى تكذّب ادعائها بالسعادة.

لم تستطع فعل شيء سوى أن غطّت المرآة بغطاء كبير، ومشت بألم وكأنها تمشي على الشوك. وتجاعيد قلبها حفرت فيه أخاديد عميقة، لن يكون ردمها بالأمر السهل، ليس قبل أن تزداد التجاعيد في وجهها.

لم تكن سوى ذنبٌ لا يغتفر، مشيتُ نحوك بخطى ثابتة وأنا أعلم أنك خطيئة كبرى، يجب الإسراع في التوبة، ولكنني لم أهتم، ومشيتُ نحوك بسرعة أكبر وكنتَ ضياعي العظيم، فأدخلتني في لعبة صعبة، ليس لي فيها دور كبير.

وحين زادت ذنوبي، أسرعتُ للتوبة، فاغتسلتُ منك سبع مرات، غير راضية بتكرار حبّك، وفي المرة الثامنة بكيتُ لأنك لم تكن شيئاً جميلاً أفخر به.

كانت قسوته معها تشبه قسوة الحرب على طفلٍ صغير، حين تهرب إليه لم يكن لها الوطن الحنون، بل كان يؤلمها وكأنها لاجئة تبحث عن وطن بلا عنوان.

بينما هي كانت كملاكٍ صغير بظلٍ حزين، رقيقة كفراشة تخدشها ريح عاتية، بكت أمامه كوردة محتاجة إلى يدٍ حانية، ومزق أوراقها كطفل

أهوج لا يعرف قيمتها. هو لم يكن لها وطن، وهي مازالت لاجئة دون أرضٍ تحتضنها.

في ذاك المقهى جلست تنتظر ألماً طال انتظاره، فرغ المقهى مما فيه، فرغ الطريق من عابريه، تم طردها بقسوة، وعلى قارعة الطريق جلست تنتظر وجعها الذي غاب عنها ولم يعد، نبحت الكلاب، أُطفأت أنوار البيوت، غنّت الأمهات لأطفالها، مشت في الطرقات الصاخبة الممتلئة بحكايات الناس المقهورة ووجعها جاءها على عجلٍ، عانقها ولفّها بعباءته ورحل بها إلى البعيد.

رحيلك كان مؤلماً بحق، لم يؤلمني سواي، الأخبار أذاعت كل الأنباء السيئة ولم تقترب منك، لم تنشر الصحف شيئاً عنا، ولم يثرثر العابرون

بقصتنا أمامي، لم تثرثر بها الجارات عند اجتماعهن الصباحي، لم ينتبه أحد إلى ثقب قلبي، ومع ذلك كنت الوحيدة الحزينة التي لم يسمع أخبارها أحد.

عندما افترقنا، أعدتُ قراءة الرسائل وأنهكتُ عيني بالقراءة، حتى إذا فرغتُ تذكرتُ بأنك الآن تتحدث وأخرى عن حجم الألم الذي سببته لك الوحدة، وبأنك مريضٌ بحاجة إلى اهتمام ورعاية، ستعطف تلك عليك بكلمات تشفي ما فيك من وجع، بينما أنا هنا، أتآكل فعلاً من الوحدة، ينخرني وجعٌ لا أعرف مصدره،

كيف هنتُ وهان قلبي؟

تعال رافقني ساعة الغروب، تتأمل الغروب وأتأملك.

نتسامر قليلاً، تشكو لي قسوة العمر، وأشكو لك وحدتي بعيدة عنك.

تنام في حجري وأغني لك أغنية الطفولة.

يوشك مغيب عمري أن يغيب ولا تشرق لي شمس بعدها.

فتعال قبل أن يحين الأجل. فالعمر ولى وإلى الآن لم نتسامر حديث المحبين ساعة الغروب.

قست الحياة عليها لدرجة أنها كان تهرب دوماً من الجميع. أي إساءة ضدها كانت لا تغفر لصاحبها. اختبأت في جحرٍ بعيد عنهم ولم تسلم من أذاهم.

سافرت، غابت، بكت، تشردت، تقوقعت على ذاتها ولم تشفع عندهم، كانت محور أحاديثهم. لم تخبرهم بقلبها المتألم من غيبتهم ونميمتهم بحقها. كانت تريد منهم أن يشعروا بما فعلوه معها قبل أن تتكلم.

واصلوا إسرافهم في سحق مشاعرها أكثر. الحق عليها، فصمتها هو من جعلهم يتمادوا. ولم تصرخ ولم يحدث منها أي ردة فعل. لكن كانت تخبو مع الأيام، وحتى إذا ما خبا بريقها وتوهجها. وجدوا رسالة في محرابها " حتى الأصدقاء أمكنهم كسر قلبي"

لقد اعتدتُ السير في دربك منتظرة إياك أن تمرّ جواري فتعانق لهفة قلبي المتيم بك.

هذه المرة سأنتظرك في بداية الطريق، فالحذاء ضيّق ولا أستطيع السير إليك. لن أقدّم وعداً بالانتظار الطويل، أخشى أن يمزّق الحذاء الجديد قدمي، ابتعته كرمى لك كي يوقظني من غفلتي ويشدّ على قدمي في حال طال انتظاري لك. ولكن أخشى أن تعجبني لعبة الانتظار فأرميه وأكمل السير إليك حافية لا يهمني شوك ولا حصى يدمي قدمي.

عالقة روحي في متاهة لولبية، كأنني أعيش في قمقم قديم، وكلما هممتُ بالخروج هزه أحدهم لأسقط داخله فينغلق بابه علي لألف عام.

روحي كشجرة غريبة نبتت في تربة لا تلائمها، بينما هي تصارع الجميع لتعيش وتحاول سرقة ماء الجميع لتكبر، ترفضها التربة وترميها خارجها.

فمن الأساس ما كان لها أن تنبت في تربة لا تستحقها.

الحياة دائماً لا تعطنا ما نرغبه. وتعطيه لغيرنا، ذاك الذي ما حلم بما حلمنا به يوماً. وإن جاهدنا لنصبح ونحقق ما صبونا لأجله. تأتي الحياة على غفلة منا لتسرقه. سرقت فيما مضي حلمي وأهدته لغيري. سرقت أيامي الجميلة، سعادتي، راحتي، أملي. سرقت كل ما جاهدتُ للحصول عليه، ورأيتُ غيري يرتدي سعادتي، ويعتمر أيامي، يتحدث عن أحلامي كأنها أحلامه. قالها لي بأنه لم يجاهد ولم يحارب ليكون له مقعداً في

حياتي. كان كسولاً لا يأبه بهذه الأشياء. لكن الحياة كان لها رأي آخر. أعطته عن طيب خاطر كل ما سرقته مني. فأصبح له ما أريد أنا.

الحب الثاني أفضل من الحب الأول بكثير، ففيها تكون نضجت وتعلمت من تجربتك السابقة.

في الحب الأول تكون مندفع المشاعر والأحاسيس، تغلق عين العقل وتفتح باب القلب.

أما الحب الثاني فتفتح عين العقل وترفض كل من يأتيك باسم الحب. حتى يأتيك الشخص المطلوب والذي لا تهون عنده، يعاملك كجوهرة نادرة. يحافظ عليك وكأنك الوحيد في هذا العالم. فعوض الله دائماً يأتي لطيفاً على هيئة شخص حنون، يفديك بعمره.

تشاجرا ليلة الخميس، مر عام قبل أن يأتي صباح الجمعة.

وفي ساعة الظهيرة مشى غريباً في جنازتها.

لم اختر العزلة يوماً، كانت هي التي تختارني. وخاصة حين أشرع بكتابة رواية جديدة، أجدني أغوص فيها وكأنها عالمي وأرضي، أعبثُ بالشخصيات وأحدد لكل واحد دوره.

أقضي شهراً بأسره منكفئة على كتابة رواية. محاطة بأشخاص من خيال ابتكرتهم. وأظل هكذا رافضة الواقع حتى أنهي ما بيدي. وحين أعود أجدني غريبة عن الجميع. فأعود إلى ما كتبت لأحتضن أبطالي، فأجدهم وقد مارسوا حياتهم بعيداً عن عبثي.

ترحل إليه بشوق يكاد يقتلها، لا تنتظره في محطة القطار، بل تحثّ الخطا إليه.

تعود منه بخيبة تكاد تفنيها. لا يبقيها لديه. ولا يطردها، ولكن يهرب منها في كل طريق يراها فيه.

حدثني بقلبك ليصل كلامك إلى فؤادي.

لا تحدثني بلسانك لأن كلامك لن يتجاوز روحك.

لم أعد أبذل جهداً في الدفاع عني، تعبتُ كوني أسوّغ للناس أفعالي وأشرح كلماتي.

أرهقتني الحياة وهي تحشرني في زاوية الاتهامات، وأنا لا أفعل شيئاً سوى الدفاع عني.

أرغب الهروب إلى حيث لا يسألني أحد أي سؤال. فقط يرحب بي، ونجلس متجاورين على رصيف الحياة. ونبكي ونضحك دون استئذان من أحد. دون أن أبرر ما يطلقه لساني.

وإني لأدعوك لتهجر الواقع وتأتي معي ونستقر في لوحة فنية، رسمتها لأجلك، نسجتُ خيوط الود كرمى لحبنا.

تعال نسرق من العمر لحظة، نعيشها في لوحة تقربنا ولا تبعدنا. نلغي الحدود ونفكّ القيود، نزيل العقبات، وأرسم لأجلك وطناً يحتضننا. لا يعرف التفرقة ولا الحروب. ارسم فيه شمساً لا تغيب، وقمر لا يختفي.

لا شيء في لوحتي غريب. ظلي وظلك يتعانقان من الشروق حتى المغيب.

لا تتأخر عن المجيء إلى لوحتي، فقد رسمتها لأجلك.

لو علمت أنك إذا رسمت شيء وتحول إلى حقيقية، ماذا تريد أن ترسم؟؟

كانت مستعدة أن تأخذ الحزن منه وتعطيه بدلاً منه أفراح.

كانت تحب مسح الألم من قلبه. وتنظفه من غبار المحن. وتبقيه أبد الدهر نظيفاً من كل آلام.

ظلت تحوم حواليه كفراشة تسعده جاهدة لخلق السعادة دون أن ترى لهيب النار الذي أحرق جناحيها.

أحرقها بغضبه. كسرها بنرجسيته. دمرها بلا مبالاته. وظلت جاهدة تلتمس له الأعذار، تحاول أن تمنحه سعادتها.

أبقاها خلف نافذته ولم يفتح لها أبواب روحه.

توسلت له البقاء. طلبت منه ألا يرحل. لا سيما أنه استهلك قلبها فأهلكه. لم يعد صالحاً لرجل بعده. أصبح يلزمه صيانة كاملة ليرجع مخضرّاً إلى ما كان عليه.

لكن إن عاد لن يعود الشخص الذي كانه، ولن تستقبله بالحفاوة ذاتها. ستكون بقلب مكسور وروح مخدوشة. لن تبتسم وتضحك، ستكون باهتة، لا روح فيها ولا حياة.

لقد عرف كيف يكسرها وكيف يبقها من ضمن ممتلكاته، لم تعد صالحة للحب بعده.

في آخر رسالة كتبتها لك، بكيتُ كثيراً، لأنني أدركتُ أنها الأخيرة، ولن يكون هناك المزيد من الرسائل المتبادلة. لم تفند ظني بك. واصلتَ لعبتك وأدرت ظهرك ولم تكتب لي حينها شيء. أرأيتها كانت مبللة بدموع صادقة؟ أرأيت ما كتب بين السطور، وخلف الأحرف؟ هل قرأت مشاعري وخوفي من فقدك؟ ظللتُ انتظرك، فاتتني قطارات كثيرة، وأنا مازلت بانتظار رسالة منك.

خائفة أنا.

خائفة من انهيار جدار أحلامي.

مع إنني شيّدتُ اللبنة الأولى في مكانها الصحيح. ومع ذلك خائفة من ريح معادية توقعه.

وسأظل خائفة إلى أن يتماسك وبعدها سأنجو من كل ريح تحاول الفتك بي وبأحلامي.

كانت صداقتهما رائعة. حكت له حكايات عن واقعها. استمع إلى صمتها الحزين. فتألقت معه وبدأت وإياه حياة جميلة خالية من كل عيب. تحدثت وإياه عن أسرارها، شاركها ألمها ومنحها أملاً لتستمر في حياتها.

كان مستمعاً جيداً، لم يتأفف يوماً من شكواها. كان صديقاً عابراً، لكنه منحها السعادة والفرح.

هناك تواريخ غير قابلة للنسيان، استثنائية، لا تجري عليها قواعد النسيان، تحتفظ بها ذاكرتنا رغماً عنا. مهما جاهدنا أن نتجاوز ذاك

اليوم، تظل الروح بداخله، يقف عنده حدود العقل وينبض القلب كلما اقتربت ذكراه.

ذاك التاريخ الذي فقدنا من أحببناهم يوماً، أو هربنا من جحيم أحرقنا. تعددت الأسباب وتبقى الذكرى ذاتها تجيء كل عام إما لتبهجنا أو لتؤلمنا.

قلبها بريء كقلب عصفور صغير، نسي صاحبه باب القفص مفتوحاً، فهرب وطار عالياً، وفي المساء عاد يقف على قفصه ظناً منه أن صاحبه هو من أطلق سراحه وفتح باب قفصه كرمى له.

كان الكل يتقاسم قلبها ولم يتركوا لها شيء، رسموا أحلامهم على أنقاض أحلامها. وعاثوا في روحها الفساد. وهي ما زالت تقدّم لهم المزيد من الودّ ويقابلونه بالمزيد من الجحود والنكران.

هي تظنّ بأنهم سيتغيّرون يوماً ما ولن يضيع فيهم الود. وهم يضحكون على طيبتها ويطالبونها بالمزيد. وإن أعطتهم روحها ثمناً لرضاهم لن يرضوا بالأمر اليسير.

في رحلته الأخيرة كتب اعتذارات شتّى لأناس وقفوا معه ولم يتركوه لجسده ينهش به من القهر والألم.

نسي ذاك الجدار الذي استند إليه في ليالٍ كثيرة يبكي وحدته.

لم يذكر وسادته التي كلما استراحت من عبراته أمطرها بعبرات أخرى.

لم يعتذر للسرير الذي لم يغادره البتّة حين تركوه ومضوا.

وفي النهاية نسي روحه التي أغرقها عذاباً وسكب من جحيم الأيام ألماً مضاعفاً، ولا حتى جسده كان له من اعتذاره نصيب.

كان يفهمها، يتفهّم ضعفها وهشاشتها، يهتم لأمرها، يراعي حالتها، يحادثها في شتى الأمور، يفهمها حين تكون طفلة تلهو بين يديه، حين تصبح سيدة حنونة، تحنّ عليه كوالدته، تهتم لأمره كأخته. ومع ذلك كله لم يحبها ولم يغرم بطيفها. كانت له نعم الزوجة، لم يحدث أن تشاجرا يوماً لأنه كان الأسبق دوماً في الاعتذار وفضّ أي خلاف ينشأ بينهما، لم يستطع أن يحبها، ولم يستطع إدخالها قلبه. بقيت زوجته بعقدٍ من ورق وبقي قلبه أعزباً. بأصبعه خاتم زواج، وبعقله هي، وقلبه خالٍ منها.

كانت لها نوراً يضيء ظلمتها. أهدتها كنوز الحب والريحان، رسمت لها درباً للحب والصداقة. وحدها عادت من الدروب المتعرجة، المتعبة، وأوصتها ألا تعبرها كي لا تهلك في المنتصف. فقابلتها بغدرٍ لم تستطع نسيانه، طلبت منها مسوّغات لما فعلته، فأدارت لها ظهرها، ومشت

متألقة في درب النجاح. لم تخبرها أنه درب موثوق وعلى جانبيه تتفتح الأزهار، بل تركتها تعبر دروب الأفاعي، تبكي عري أقدامها وبرودة أطرافها، تشكو لها طول الطريق، وتواسيها تلك وفي قلبها شماتة لما أصابها.

حين لمحها أول مرة وهي تبتسم للبقّال، وقع في غرامها، فهللت العينان وكبرت وقالت أنهما من رأتها أول مرة، فلولا العينان ما كان ليقع في حبها. لكن كان للعقل رأي آخر، إذ قال بأنه هو من أمر بهذا الحب، بإمكانه زحزحتها من رأسه وإزالتها، لكنه أراد لهذا الحب أن يتم، فطلب من جميع الحواس أن تعشقها وتهيم بها.

رفض القلب كلام العقل الغير منطقي، وقال بأنه هو من دقّ دقة الحب الأولى، وكاد أن يخرج من قفصه ويهرول إليها، وكان العقل حينها يرفض ما يحدث جملة وتفصيلاً ويطالبه بالتعقل قليلاً. فالقلب هو من وقع في غرامها أولاً، العين ترى كل يوم شيئاً جميلاً ولا تقع في حبه.

والعقل يرفض الحب دوماً باعتباره سيؤلمه ويشتته. لكن القلب ولد عاق يرفض كل الأوامر ويهرول وحده إلى درب الحب.

لم أندم يوماً بقدر ندمي على معرفتهم، حين تجلّت لي الحقيقة، واضحة كعين الشمس تبخروا كماء تحت حرارتها.

بقيتُ في مكاني أعدّهم على أصابعي، وكلما يختفي أحدهم أعض أصبعاً ندماً ثم أطويه.

كانوا لي الأمل والحياة، ولكن الأيام كشفت لي زيفهم وأنهم مجرّد فزاعات حتى وحوش الحقل لا تطردهم، بل تتخذهم أصدقاء لها، وحدي من طُرد من حياتهم بلا رحمة. حتى لم يمنحوني كسرة أمل تعينني على نوائب الدهر.

كنتُ لهم حياة، وكانوا يصنعون تابوت موتي في الخفاء.

كان حبهما يحتاج إلى الكثير ليستمر، وما كان في جعبته سوى القليل ليقدمه لها. صبرت عليه، وتغافلت عن أشياء، وتغابت، وتحاملت، لم تطلب الكثير، فقط أن يكون لها رجلاً، لكنه حتى هذه عجز على أن يكونها. أمدّها بالعهود، وقدم لها الوعود، رسم لها الآمال، وأقسم أغلظ الأيمان أنه لقادر على تحقيق الأحلام، لكنها جميعها بقيت أوهام، لأنه أتاها من ذكر لا يحمل معه سوى السراب.

حين تغيب أيفتقدك أحدهم؟ أهناك من يتصل بك شوقاً. أذكر أحدهم مات والهاتف في يده في انتظار مكالمة لن تأتي.

ستكون في نعمة عظيمة إن فكّر بك أحدهم وأخبرك بشوق نما بغيابك.

علاقتنا الأخيرة تكشف صلابتنا، ونقاء غيرنا، تكشف لنا ما لم تكشفه علاقاتنا القديمة. نسينا أيام المراهقة والعبث واللهو. نحن الآن أكبر وأنضج وأكثر انفتاحاً، فعند انتهاء العلاقة لم تذرف دمعة واحدة، وإنما شيّعت أحاسيسها ودفنت مشاعرها، وخرجت للجميع تدعي القوة والنسيان.

حين تزاحمت عليها الهموم، فتشت في هاتفها عن رقم ذهبي تحتفظ فيه ليوم الشدّة، لكنه لم يجبها، ولم يأبه لألمها. كررت اتصالها ومنحته العديد من التبريرات. وانتظرته، ومرت السنون في انتظار أن يجيبها رقم كان يوما بخانة الأحباب. ولكن في كل مرة يعطيها (الاتصال خاطئ).

تخاف من الولوج إلى عالمها، فتهرب منه إلى كتبها، تقرأ وتقرأ حتى تصبح أقوى، فتدافع عن حلمها وتتحدى الحياة بثبات، ثم تنقصها جرعة الشجاعة، فتجبن وتهرع مرة أخرى إلى كتبها تقرأ الكثير، أكثر من المرة الفائتة، لا تخرج من صومعتها حتى تصبح قادرة على مجادلتهم جميعاً، وأخذ حقها عنوة، فتقتنص الفرص لسلب كل ما يخصها من بين أناملهم، وتعود إلى صومعتها غير خائفة من ردة فعلهم، غير خائفة منهم، فالقراءة علمتها الكثير.

في كل مرة تتجه إليه، تبكي على صدره هشاشتها، تشكو له قسوة المحيطين بها، يربت على كتفها، يعانقها، يواسيها.

الآن هو خيبتها، خذلها ورماها خلف ظهره. وقفت تحاول أن تشكو له، ولكن كيف تشكوه والألم جاء منه. لم تنزع سهم غدره، كي لا تنسى مرّاً

أصابها منه. كي لا تعود إليه فتشكو له علقم الأصحاب، والعلقم كان هو.

في انتظار خريف هادئ يبعث في القلب ذكريات بعيدة، ذكريات باهتة كانت يوماً لقلب بريء، ونفس أغلى أمنيتها أن يجلب والدها لعبتها المفضلة. مرّ العمر سريعاً وتوالت الأماني، ولم يعد يشكّل لها الخريف أي معنى سوى النوم دقائق أخرى، ساعات أخرى، أيام وأسابيع، دون أن تستيقظ على واقع فُرض عليها.

سحبها من يدها إلى بحر من أحزان، ركبت معه قارب اللاعودة، تقاذفتها أمواج الخيبات، وكلما همت بالعودة، وجدت أنها ابتعدت كثيراً

عن شاطئ الأمان، لا القفز ينجيها، ولا المكوث ينجدها، عالقة في المنتصف المميت وهو يمارس معها طقوس الذل والهوان.

سحبت يدها من يده، رمى المجداف وسحبها قسراً، تعاركت معه، أرادت أن تهرب منه، والأمواج تلعب بهما فأوقعتهما، وفي قلب البحر تمسكت به جيداً، لأنه وحده منقذها من غرق يوشك أن يهلكها.

أتأمل كل ليلة المساحة الرمادية التي خلفها غيابك، استنشق أزهار ملامحك، وانتظرك وحدي راجية أن تعود. وأراقب خريطة الزمن، أفكر بك كم نحن قريبان على خريطة من ورق، بعيدان في الواقع بعد السماء عن أرضها. أقرّب المسافات بيننا وأنتظرك في منتصف الخريطة، عند نهرٍ خارت قواه فتوقفَ عن الركض. جالسة على صخرة تتفتت يومياً بسبب حرارتها المتصاعدة من حنينها إليك.

وأراقبك لعل وعسى تأتي بشوق يعيد للصخرة صلابتها، ويعاود النهر جريانه. فلا تتأخر عنا. كلانا ننتظرك، أنا والنهر والصخرة.

تتعانق الجذور رغم البعد، تمتزج الأرواح وتسبح في عالم من الخيال، فتصنع المزيد من الألفة والود، رغم البعد تلتصق الأرواح ببعضها، ويتراقص القلبان في نغمات شاردة باحثة عن ماهية الحب الأول.

لا زلتَ في الذاكرة... لكنك لن تعود إلى القلب.

وحدها الورقة لا تتهمك بالثرثرة، تظل تستمع لك، وأنت تثرثر، وحتى حين تنسكب دموعك فتتجعد بسبب حزنك، لا تتهمك بأنك قد خربت حياتها ونقلت همومك إليها.

لن تشكو من ثقل همك، ولن تفرّط بسرّك. فأشكو همومك لورقة بيضاء تحفظ لك سراً، ولا تشتكي من ضيق القلوب وشكوى النفوس.

كان العوض الجميل لها، كافأتها به الحياة بعد سنوات من التعب والصبر والألم، هدية من الرب لصبرها على ما لا يحتمل. حتى زارتها الكآبة واستقرت في طيات معطفها، لازمتها كاسمها، وفي لحظة صمتها جاءها حاملاً معه سعادة على مقاسها.

كان كحلم شهي المذاق، حلم لم يتوقع أن يتحقق يوماً، وفي لحظة جميلة غدا الواقع أشهى من كل الأحلام.

كان لطيفاً معها كنسمة باردة في شهر يوليو، كان دافئاً معها كمعطف دافئ في شهر يناير.

كانت الأرض أرضه حين هجّرها منها، أصبحت لاجئة بلا عنوان، كل القلوب أُغلقت في وجهها، وكتبوا عليها لوحة يُمنع استقبال اللاجئين. ظلت تحوم حول أرضه، فهي لا تعرف أرضاً سواها، غلبه الحنين، طار قلبه إليها، وجدها على عتبة داره، بائسة تشكو لوعة الفقد، قربها إلى قلبه، عانق راحة يدها. أدخلها أرضه من جديد. لكن وجدها أخرى، ضاعت مشاعرها في طريقها للبحث عن قلوب تهفو إليها. ما عادت كما كانت قبل أن يطردها. بل عادت أخرى لا يعرفها.

في منتصف الرحلة عادت، لم يهمها أن تعود وحيدة، ولكن همها أن تكمل الرحلة مع رفيق سفر خاطئ، عادت لوحدها متوجسة من طريق تعبره، صمدت في وجه الريح، سقطت في الآبار، لملمت نفسها وأكملت ولم تخف الذئاب البرية. لم يلحق بها، ولم يتوسل لها البقاء. وحين وصلت بسلام وجلست بأمان، عاد يحوم حولها كي تذهب معه في رحلة سفر أخرى، معاهداً إياها ألا يتركها. وماذا عن الطريق الذي أكملته بمشقة وألم، أيجبر اعتذاره ما أفسده في قلبها؟

في كل مرة تسلك درباً غريباً عنها ومجهولاً، تصادفه في نهايته، تعود على أعقابها ولا تلتفت خلفها خوفاً من أن يأسرها حبه، وتعود مرة أخرى تسلك درباً غير ذاك الدرب وتتكرر المشاهد ذاتها، هروب وتقوقع على ذاتها. حتى حفظت كل الدروب لكثرة ما سلكتها، فأقسمت ألا تمشي خطوة واحدة كي لا تصل إليه.

لكنه فاجئها أن اقترب هو منها، من قعر دارها وما لبث أن هوى القلب في هواه. لم تكن تدري أنه قدرها وأنها مهما هربت منه ستجده في كل المنحنيات وفي كل مكان.

كأنه مصباح طرقي في طريق مهجور، لا أحد يقربه سوى فراشة يتيمة لا تتردد في حرق أجنحتها من أجل أن تصل إليه، فراشة غريبة لا يسأل عنها أحد إن تاهت أو ماتت.

تظل الفراشة تحوم ويظل هو يضيء لها الطريق من أوله إلى آخره كي ترحل عن جحيمه وتتركه لعذاب الهجر. لكنها يروق لها أن يحرق أجنحتها فتلعقها وتداويها ثم تطير إليه مرة أخرى، لا يهمها النهاية ولا البداية. ما يهمها نوره الساطع.

كان حزنها صادقاً ومع ذلك ابتسمت لهم وفي عينيها دموع تكذب ابتسامتها.

الكل صدق الابتسامة وعبروها ومضوا إلى سبيلهم، لكنه وحده من استوقفته الدموع ومسحها لها، كان حبه صادقاً كحزنها، وحده من وقف جوارها حين انفض الجمع حولها، الكل منتبه لمشاكلها وعنده هي أكبر همه وأجمل فرحته.

في كل نهاية بداية جديدة، وبعد كل نقطة سطر جديد، وخلف كل صفحة ممتلئة بالمآسي صفحة جديدة خالية من المكدرات.

ولكل بداية نهاية مختلفة، وبعد كل سطر جديد نقطة مختلفة، وخلف كل صفحة ناصعة البياض صفحة سوداء مشوشة.

وهكذا الحياة تبقى تدور، بداية ونهاية ثم تعيد الحياة جولتها بطرق مختلفة.

فانتبه جيداً إلى البدايات واستبشر خيراً في النهايات.

الحب أن أضع رأسي الممتلئ بالقلق على كتفك حتى يتلاشى.

الحب أن تسندني كلما ترنحتُ حزناً ولا تجعلني أسقط أرضاً.

الحب أن تسمع ثرثرتي كأنها عزف ناي حزين.

الحب أن تغمض عينيك عن أخطائي وتضمني كلما تباعدنا.

الحب أن نتقاسم الوحدة، الشغف، المتعة، الألم، الفرح، اللهو، والكثير الكثير من السهر.

الحب أن ترفق بروحي لأنها لك، وتعطف على قلبي لأنك ساكنه.

الحب أن تتصل قبل أن أتصل بك، وتأتي قبل أن أدعوك وتخطو إلى قلبي قبل أناديك.

رسائل عديدة وضعت تحت الباب، منها الهيام ومنها الفراق.

هذا الباب يحكي ما عجز أصحابه عن سرده.

كم وداع لاقاه؟ وكم فرحة تلقاها؟

رحل عنه من رحل وظل هو يذكرنا بحجم الدموع التي تساقطت عليه.

عايش الأجيال جميعها، وربت على كتف الجميع، مسح دموع الصغار واستمع لأحاديث الكبار.

أدركتُ مع الأيام أنني زرعتُ بستاناً في أرضٍ لا تثمر، حفرتُ الآبار لأرض عطشى لا نبع فيها ولا ماء.

الأرض ليست لي، طردتُ منها واقتلعوا ورودي، رموها في وجهي طالبين مني ألا أعبر أرضاً لا تخصّني ولا أزرع بستاناً في أرضٍ ليست لي.

تركتهم خائبة وأقسمتُ أن أزرع بساتين العمر تخصّني وحدي، وقفوا جواري يحسدون ما أزرعه والينابيع تفجّر منها العيون وأنا سعيدة فهذه الأرض أرضي وهذا الفرح يخصني وحدي.

مرهقة، لا أدري لأي قلب أنتمي،

ولا أدري أي روح تسكنني.

متعبة من البوح والعتاب، من شرح ما يؤلمني.

متعبة من الانتظار ومن الليل ومن الصباح، من شروق الشمس وغروبها، أرهقتني الأيام وأنا أحاول أن أداري حزني عن الجميع إلاه، فعرف الجميع ما يسكنني عداه.

تعبتُ وأنا أداري عنهم ما يحزنني، وهم يقفون في طابور أوجاعي، يسألون عن آلامي كأنها تخصّهم ويتحدّثون عنها في مجالسهم كأنها ملكهم، وفي آخر الليل يغلقون أبوابهم ويبقى صرير بابي يهتز، ينتظر

عودتهم لمسح المدامع في المآقي. لا هم يعودون ولا الباب يتوقف عن الانتظار.

أرغب بقول شيء لطيف مثلك. ولكن يخرج الكلام من لساني حزيناً مثلي ومثل جميع المنتظرين خارج الحد الفاصل نسمع ونرى ولا يمكننا الاقتراب.

أرغب بعناق يعيد لي بهجة الأعياد ولكن العناق لا يعيد مُرّ ما مَرّ على أيامنا. أتصفّح وحدي خزائن حياتهم فأجدها بسيطة لا يرغبون من الحياة سوى الحياة، لا يأملون من الغير سوى شربة ماء.

أرغب بعناقهم جميعاً والهرب بهم بعيداً.

في نهاية كل طريق اكتشف بأني عبرته بمفردي، لم أجد يداً تمسك يدي، ولا قلب يربت على كتفي، لم أتلقَّ تصفيقاً في نهايته وكذلك لم أتلقّ تشجيعاً في بدايته.

في كل درب أعبره أشعر أنني غدوتُ أكثر صلابة مما كنت. فأنا أسير في عتمة الدروب، أقفز فوق الحفر، أبحث عن أيدي دافئة، قلوب حنونة، عيون لطيفة، فأكمل الدرب بمفردي وأعبره من شارع إلى آخر.

وحدي أتممتُ الطريق بلا رفيق ولا صديق.

وكأنه خارج من روايات خيالية، لم يخرج لها وهو يمتطي حصانه الأسود، بل خرج هادئاً يمشي على قلب بعثره حبها.

في كل رواية تقرأها يحاصرها البطل بنظراته ويطل هو من عليائه ليكمل مهمة بدأها ذاك الأسطوري لتعيش معه وهم الحكايات.

لا تريد واقعاً، فالواقع ليس لذيذ كالخيال، كل حقيقة موجعة، وكل واقع مؤلم.

في كل ليلة تتعطّر له وتبدأ القراءة ليحاصرها طيفه بعد دقائق في غرفته لا حدود لها، تختفي جدرانها وتتكسر نوافذها ولا باب لها. تسبح وإياه في بحرٍ من الخيال، فالحب الأسطوري يلزمه كائن أسطوري ليتممه.

مدّ لي أغصانك وعانقني، لا تلتفت، فقط مدّ لي غصناً يعانقني، غصنٌ يمسك بيدي ولا يفلتها.

لا تلتفت خلفك، جذورنا مازالت تتمسّك بالأمل، وأنت تلتفت خلفك هارباً،

مدّ لي غصن يعانق قلبي ويمنعني من الهروب. لا تحاول النجاة لأنك لن تستطيع السير وجذورك ضاربة في الأرض ملتفّة على روحي، قابعة في قلبي ووجداني. فأين المسير وأنت لا تقوى على السير، فكفاك بخلاً وهات غصناً يعانقني.

في قانون الحب أن ننتظر من نحبه دهراً بأكمله، وفي قانون الحب عليه أن يعود ولا يتأخر.

ظلت تنتظره وتسأل عنه في كل محطة علّه يأتي. ولكن جاء إليها زائرون كثر، ومرّ جوارها بائعون بلهجات مختلفة، وطار الحمام ونعب الغراب، جلس متشردون جانبها يطلبون منها المال. ولم يأتِ.

انتظرته في المطارات وفي المحطات وفي الشوارع البعيدة. خاب أملها فهي كانت تتبع قانون الحب ولكنه هو ربما كفر بهذا القانون منذ زمن ولى، ولم يعد ولن يعد.

أصبح حديثنا جافاً لا يليق بما أهدرناه من سنين حب.

وكأن الفراق يغزل لنا نهاية يحتفي بها الخريف ويسقط الحب ميتاً كأوراقه الصفراء.

رغم تمني أن يكون هناك ديمومة لعلاقتنا كشجرة دائمة الخضرة، كورقة في عليائها شامخة لا تسقط مهما تلاعبت بها رياح الخريف، ومهما أغوتها أرصفة العشاق أن تهبط إلى أديم الأرض كي تستقر فيها ولا تعود إلى مكانها.

ولكن الأمور جرت كما لا نشتهي وجاء الخريف باكراً وكأن النهاية كتبت بذات قلم البداية. كانت الخاتمة جاهزة قبل أن نبدأ.

للأسف كانت تنتظره في مكان لا يصله.

على شاطئ الأمل وقفت تعبث بخاتمه، تستذكر وعداً قديماً مرّ عليه الزمن وأصبح ذكرى قاسية.

في ليلة سمر عانقها، وعدها بعودة له قريبة. وإن تأخر عنها يمكنها أن تنتظره على شاطئ الغرام.

لكنه كبني جنسه أخلف وعداً قطعه. فالسفينة التي غادر عليها لا تعود إلى الشاطئ ذاته، بل تكمل سيرها، لأن له في كل ميناء فتاة عذراء جالسة تعدّ الحصى بانتظاره.

يراقصها كل ليلة على جرحها، يشعل في صدرها نار الفراق، يقتلها كل صباح بالهجران، ويأتيها في الليل فيراقصها على جراح لم تندمل، يسمعها كلام الغزل ويناشدها البقاء.

وتستمر الحكاية في الصباح تنتظر صفعة الخذلان واتقاد نار الهجر. وفي المساء يطلّ بطلها كنجم لا يأفل، يراقصها على ألمها. يعزف لها ألحان هيامه، يطوّقها بنظراته، يعتذر لها بالقبلات. ينسيها حرقة الفؤاد ولهيب الهجر، يمسح بقطنة طبية صفعة الخذلان. فتسامحه لدقائق قبل أن يبزغ فجر جديد.

من رحم الألم يولد الإبداع